#24

بونوا ديتيرتر

# الصَبيَة والسجارة

4.10.2018

رواية

ترجمة: زهير بوحولي
مراجعة: رمزي بن رحومة

بونوا ديتيرتر

# الصبية والسجارة

ترجمة: زهير بوحولي
مراجعة: رمزي بن رحومة



عنوان الكتاب الأصليّ

LA PETITE FILLE ET LA CIGARETTE

De Benoît Duteurtre

الكاتب: بونوا ديتيرتر

عنوان الكتاب: الصبيّة والسيجارة

ترجمة: زهير بوحولي

مراجعة: رمزي بن رحومة

---

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-833-86-7

الطبعة العربية الأولى: 2018

---





مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

منشورات تكوين

TAKWEEN PUBLISHING

منشورات تكوين للنشر والتوزيع

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 0096598810440

الموقع الالكتروني: www.takweenkw.com

البريد الالكتروني: takweenq8@gmail.com

## (1)

يبدو كلٌّ من النصين غير قابل للنقاش، ولكنّهما يقودان إلى نتائج متعاكسة. فحسب قانون الولاية كان المدان ديزيري جونسون يستند إلى حقه كاملاً وهو يستحضر الفصل 47 من قانون العقوبات الذي يخوّل له أن يُشعل سيجارةً أخيرةً قبل أن يُنفَّذ فيه حكم الإعدام. ومن جهته، كان السيد كوام لاوو شنغ مدير المنشأة السجنيّة، وهو يحجّر على السيد جونسون إشعال هذه السيجارة، يطبّق بصرامة، الفقرة 176 ب من النظام الداخلي. وهي فقرة تمنع استهلاك التبغ داخل السجن، أُضيفت منذ سنة خَلَتْ تحت ضغط جمعيات الدفاع عن الصحة العامة.

طبعًا، إنّ فكرة الدفاع عن صحّة شخص محكوم عليه بالموت، قد تبعث على الحيرة، إلاّ إذا رأينا فيها تخفيفا لوطأة الفظاعة. ولكنّ تدبيرا من هذا القبيل مكفول، ما دام في صالح العدد الأكبر من الناس. ومن وجهة نظر أخرى، فإن الفصل47، بالرغم من ترك العمل به، يسمح بلا شك للسّجين، بأن يسحب من سيجارةٍ بضعةَ أنفاس يزفر معها رغبته النهائية.

كان ديزيري جونسون غير المبالي على ما يبدو بالمصير الذي ينتظره، يستعرض سحنته العنيدة، بينما يجري في ردهة قاعة الإعدام

تبادلُ حديثٍ صامتٍ يضع المحكومَ عليه بالموت أي الفتى الأسود الطويل، والهادئ جدا، بجدائل الشعر على طريقة الراستا[1]، في مواجهة مع المسؤول عن المنشأة، وهو فيتنامي حاصل على شهادة في القانون، وقعت تسميته مؤخّرًا على رأس هذا السجن فائق الحداثة، كي يؤمّن فيه بشكل حسَنٍ تنفيذ عشرة إعدامات في السنة. بدا جسم الآسيوي الصغير منقبضًا بفعل اضطرابٍ حيويّ داخلي، ذلك أنّ إرادتَه القيامَ بواجبه دون ارتكاب أخطاء، وخشيتَه من خرق النظام، ووجوبَ اتخاذ قرار، تجسّدت جميعُها في إعادته الطلب نفسه مِرارًا بصوت ميكانيكي تظهر فيه الحاجة إلى الطمأنينة:

-أطلب منك سيد جونسون، بأن تتفضل بذكر أمنية أخيرة متّسقة مع النظام الداخلي الخاص بهذا السجن.

لم يكن ديزيري جونسون بزيّه البرتقالي المشعّ ويديه اللتين تُعيقهما الأصفادُ مستفِزًّا ولا وقحًا البتّة، بل كان يُظهر على الأرجح، ذلك النوعَ من عدم الوعي الذي حيّر القضاة خلال محاكمته، عندما كان يؤكد أنه لم يطعن ذلك الشرطيّ البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما، ولا ألقى بجثته في زقاق قريب من محلّ إقامته. وراح يوضّح ممتلئًا بالثقة، صريح النظرة، ومستقيم الرأس بين الكتفين القويّتيْن، ما ظنّ أنّه مجبر على توضيحه:

- كنت أعترض سبيله أحيانًا، وبصراحة كان سافلاً عنصريًّا كبيرًا. ولو أنّني رغبت في قتل أحدهم لاخترت بالتأكيد شخصًا من صنفه.

---

(1) ضفائر الشعر على الطريقة الجمايكية. (المترجم).

بالنظر إلى القرائن المتطابقة والبالغة الكثرة، فإنّ هذا التّصريح الغامض من ديزيري جونسون، كان بمثابة ناقوس اعتراف يدقّ. ولكنّ أمرا ما في أقواله، يعكس أخلاق الفرسان، قد جلب إليه تعاطف جمهور الحاضرين، خاصة عندما أضاف حينها:

-لا تطلبوا مني بكاء هذا الرجل الذي يتحرّش بالأطفال بدل أن يمدّ لهم يد المساعدة. فلم يحدث لي طيلة حياتي، أن أسأتُ إلى طفل.

ظلت المحكمة منقسمة في شأنه، حتى لخّص المدّعي العام الوضع ببساطة: لقد كان جونسون زمن وقوع الأحداث في حالة احتياج شديد إلى جرعة مخدِّرات. ولقد وجدوا السلاح تحت مقطورته. وتتويجا لكل ما سبق، هو يتبنّى أيضا المبدأ الذي قامت عليه هذه الجريمة النكراء. وعليه أن يدفع الثمن.

ومع ذلك، ها هي مسألة سذاجته تطرح نفسها مرة أخرى على كوام لاوو شنغ المتبرِّم من الهدوء الذي كان جونسون يجادل من ورائه دون هوادة:

-ولكن سيدي المدير، هذا مدوَّن.

كان وهو يقول ذلك، يمدّ إلى مدير السجن نسخةً من الفصل 47: بضعة أسطر مستخرجة من قانون العقوبات تنُصّ على أنّ بإمكان المحكوم عليه بالإعدام، أن يحقِّق قبل تنفيذ العقوبة رغبةً أخيرةً منسجمة مع الأعراف المتَّبعة. صحيح أنّ مصطلح «أعراف متّبعة» يضع الأمر محلّ نقاش، غير أن النّص كان يذهب إلى حدّ تقديم بعض الأمثلة الدقيقة من قبيل: «شرب كأس من الكحول،

تدخين سيجارة». إنّ هذه الإرشادات التي تعود إلى فترة تاريخية سابقة، تسمح بعد مرور نصف قرن لديزيري جونسون بأن يفتح عينيه الكبيرتين عن آخرهما مؤكّدا:

-كل ما أريد هو أن أدخّن سيجارة. ولي الحق في ذلك سيدي.

لدى سماع هذا المغفّل، يظنّ المرء أن المسألة حقا لم تكن بالنسبة إليه احتضارًا بعد ربع ساعة، وغوصًا في العدم، وهو لا يزال في مقتبل العمر، إنّما فقط حصوله على ما كان له فيه حق، أي سيجارة القذارة هذه التي تدمّر كل سنة ملايين الحيوات البشرية عبر العالم.

إثر ثمانية عشر إعداما نُفِّذت دون وقوع حوادث، انتهى كوام لاوو شنغ إلى النظر إلى نفسه، دون أن يَعدَم عُجْبه بها، على أنه محترف جيد، ومثال يحتذى في الدقة والنجاعة والإنسانية في تطبيق القانون الديمقراطي. ومع ذلك، لم يحدث قط أن صادفته صورة الحال هذه. وبرغم كل جهوده، لم يظفر بشيء في ذكرياته حين كان طالبا، ولا في تكوينه القانوني، يمكن أن يسعفه ببداية جواب عن هذه المسألة.

كان حظر التدخين في مركز الاعتقال قد أثار حتما بعض التوتر في البداية داخل هذه المنطقة ذات الحراسة المشدَّدة. ولكنّ النتيجة ماثلة أمام الأعين؛ ففي بضعة أشهر انقطع السجناء عن التدخين، راضين أو مُكرَهين. كانت المجسّات الأوتوماتيكية المعلّقة في أسقف المنشأة تقتنص أدنى انبعاث مشبوه. وقد انتهى المعاندون إلى الاستسلام تحت تهديد المعتقلين الآخرين الذين لم يعد بوسعهم تحمل انطلاق صفّارات الإنذار هذه في أي ساعة من الليل أو النهار. وبالتالي ما عاد المحكوم عليهم بالإعدام، وقد شُفُوا هم أيضا من الإدمان على

التدخين، يطالبون بـ«السيجارة الأخيرة» ذائعة الصيت. بل إن غالبيتهم كفّوا عن المطالبة بأيّ شيء، وراحوا يفكّرون في احتضارهم القادم. ولم يكن الأطباء، من جانبهم، ينصحون بتناول كأس الرُّمّ الصغيرة، لأنّ بعض التفاعلات الكيميائية بين الكحول والمادة القاتلة التي يتمّ حقنها في الجسم، يمكن أن تكون غير متوقّعة لحظة الموت.

-أريد ببساطة أن أدخّن سيجارتي. كرّر جونسون في جوّ يتعاظم فيه التوتر بين حراس السجن والقائمين بالحق الشخصي ومحاميي الدفاع.

كان مقر الإعدام شبيها بغرفة تمريض بجدرانه المغطاة بالبلاط الأبيض، والخزانة الطبية القائمة جانبا التي تحوي مختلف الأوعية والمعدّات. وعبر الباب الموارب، يلمح الناظر إلى الحجرة الموالية نوعا من طاولات الجراحة المجهّزة بأحزمة متينة، فوقها سيخضع المحكوم عليه لـ«عملية جراحية». وهناك بابان آخران، أحدهما إلى اليسار والآخر إلى اليمين، يفضيان إلى قاعات الجلوس الصغيرة، حيث اتّخذ ضيوف الطرفين أماكنهم، كي يتابعوا المشهد المأتميّ حتى آخر شهقة يشهقها المحكوم عليه.

كان هؤلاء الأشخاص، الجاهلون بالجدال الذي يتمدّد في الكواليس، ينتظرون بداية العرض بفارغ الصبر، بينما كان كوام لاوو شنغ المتجمّد أمام المجرم، يبحث عن حلّ للوضع المربك دون أن يقوى على الحزم الذي سيمكّنه من الحسم. فمن جهة، كان قانون العقوبات يمنح -شكليًّا- لجونسون الحق الذي كان يطالب به. ومن

جهة أخرى، كان نظام السّجن يمنعه من ممارسته. أضف إلى ذلك، أن المِجسّات تجعل من هذا الفعل أمرا مستحيلا لاحتوائه على مخاطرة إحداث شغب داخل السجن.

كان المدير يأمل، من صميم قلبه، أن تكون الكلمة الفصل للحسّ السليم، وأن يقبل المحكوم عليه بقرار يُتّخذ من أجل خير الجميع. فتجرّأ مرة أخرى وحثّه على إعمال عقله:

-سيد جونسون أنت ترى جيّدا أن هذا غير ممكن. فمع أوّل أثر للدّخان ستزعق صفّارات الإنذار في كل مكان. كن متفهّمًا!

وإذ لم تمسّ هذه الكلمات من تصميم ديزيري، اصطبغ صوت المدير بصبغة من سُخط:

-أنت تعلم جيّدا أنه أمر سيّئ بالنسبة إلى الجميع. فإذا لم تكن تفكّر في صحتك، فاحترم، على الأقل، صحّة الحرّاس، فلا شيء يجبرهم على تحمّل المتاعب الناجمة عن سيجارتك!

في خضمّ الصّمت الذي تلا ذلك، ألقى المدير بأوراق لعب أخرى:

- سنقدِّم لك بكل سرور شطيرة همبرغر مع جعة مبرّدة... قل لنا ماذا تريد قبل أن نغادر سيد جونسون.

كانت محامية المحكوم عليه المتفاجئة بطلبه شأنها شأن الآخرين، تفترض أنّ المدير سيَمضي قُدما، وأنّ القضية ستنتهي هنا.

على مدار المحاكمة، بدت الأستاذة مارين باتاكي عاجزةً عن تحصيل أدنى ظروف التخفيف لموكِّلها. وفي الوقت نفسِه، كانت

تتعجّب من أن مجرما متبلِّد الذهن نوعا ما، قد أمسك بمثل تلك الجرأة، بمشكل قانوني غير مسبوق.

وقبالتَها، كان محامي أسرة الشُّرطيّ يشعر بأنه بصدد مزاح ثقيل. ولكنه هو أيضا كان يثق في المدير لتسوية هذه التفاصيل الدقيقة والمرهِقة كما هي عادته دوما.

وبينما كان كل واحد من الحاضرين ينتظر أن يعود كل شيء إلى نصابه، انبرى المحكوم عليه يشرح الأمر وكأنه يسعى إلى إقناع الآخرين بحسن نيته:

-انقضى عام، وأنا أُمنع من تدخين السّجائر. لذا، أنا لا أرغب إلاّ في تذوّق واحدة أخيرة، بما أنه لي الحقّ في ذلك.

-غير معقول! سخطَ صوتُ أحدهم. إنّه يستغفلنا! هيا سيّدي المدير أعطِه سيجارته ولْيُعدَمْ.

أدار كوام لاوو شنغ نحو المحامي نظرة عاجزة وأشار إلى مجسّ الدّخان المعلّق في سقف غرفة التمريض. فيما كان المدّعي المهتاج يطالب بحلّ عاجل. من الواضح في نظره، أن القاتل يواصل استفزازاته عبر لعبة صغيرة مخصّصة لتأخير لحظة القدَر المحتوم. والتمادي في الانتظار سيعني التغاضي عن وقاحته.

ثم إنّ المدير، وهو يستعدّ ليتدارك نفسه، استدار إلى الجانب الآخر والتقت نظراته بنظرات مارين باتاكي المحامية المعيّنة من قِبل المحكمة، فرأى في عينيها الصغيرتيْن اللامعتيْن تصميمًا مباغتًا، كما لو أنّ إصرار جونسون قد فتح للتوّ بابا من الأمل في مسيرتها المهنية

المتواضعة. فبعد مرور خمس دقائق من عدم الفهم، انفتحت لها آفاق جديدة ولن تفرّط في هذه الفرصة الخارقة للعادة...

حاول كوام لاوو شنغ مرة أخيرة الحصول على حل توافقي.

-هل تعرف، يا سيد جونسون، أنك بصدد تقديم مثال سيّئ وأنّ آخرين سيُغْرَوْن باتِّباعك...

كانت نبرة الصوت أبويّة. ولكن بعيدا عن هذه المجاملات انفجر محامي الضحيّة:

-أنا أدعوك، سيّدي شاوو لنغ[1]، إلى الشّروع في إجراءات تنفيذ العقوبة كما هو مقرّر وفي الوقت المحدّد!

كان إصبعه موجّهًا إلى ساعة غرفة التمريض الحائطية وهي تشير إلى الساعة الثامنة وخمسين دقيقة. وبما أنه قد وقع تحديد الساعة التاسعة بالضبط لإجراء عملية الحَقن، فلم يعد هناك مجال لإضاعة الوقت. ولكنّ محامية الدفاع اختارت هذه اللّحظة، وهي تتّخذ مبادرة لم يحدث مُطلقًا أن أتت مثْلَها في مسيرتِها المهنية، لتتقدم بثبات ومهابة موضِّحة:

-كما هو واضح سيدي المدير، ها نحن في مواجهة مشكل قانوني غير معروف يجبرنا على تأجيل التنفيذ. يجب على الأقل معرفة رأي المحكمة العليا.

-هذا عبث! ردّ خصمها. لقد وقع رفض الالتماس.الرئيس لم يَعْفُ عن المحكوم عليه. قانونًا هذا الرجل في حكم الميّت!

من يراه هكذا، بسحنة المثقف وبجمجمته الحاسرة وجبينه

(1) ورد الاسم مُشوّشًا في الأصل لإبراز خروج المحامي عن طوره لحظة الغضب. (المترجم)

المتغضّن ونظّاراته، يظن أنه أستاذ علوم إنسانية، لولا انتفاضة الغضب هذه التي عبّرت عن نفسها فجأة:

-بربّك! هذا غير معقول. لديّ عائلة تنتظر على أحرّ من الجمر في هذه القاعة: الوالدان والزوجة والأبناء. أسرة محطّمة تنتظر منذ عشر سنوات تشنّجاتِ احتضار هذا السافل لتبدأ في تقبّل عزاء ابنها!

قال جونسون وقد استعاد نغمته المعهودة في تؤدة. وبدا أنه يريد إيجاد حل:

-أنا، كل ما أطلبه هو تدخين سيجارة.

وهنا تدخّلت المحامية مؤكّدةً وهي تشير بإصبعها إلى سماعة الهاتف المعلّق على الحائط.

-علينا أن نتّصل هاتفيًّا بمحكمة العدل العليا، -المحكمة التي انقضى لديها منذ ساعة خلت الانتظارُ العقيم لعفو رئاسيّ-.

كان كوام لاوو شنغ الخاضع لهذه الإكراهات المتناقضة، يدرك جيّدا أنه لم يعد قادرا على المناورة، ويعلم أيضا أن قراره سيثير في كلّ الأحوال غضب أحد الطّرفين.

على الساعة الثامنة واثنتين وخمسين دقيقة، تنبَّه إلى أنّ الحلّ الأول يطرح سلبيّة كونه أمرا لا رجوع عنه: فهو إن مضى في إجراءات التنفيذ مرتكبا خطأً قانونيا، فإنّ الهفوة غير القابلة للتصحيح ستعود عليه بالوبال. وعلى العكس من ذلك، إذا أجَّل التنفيذ، فإنه سيكون من اليسير إرضاء الضحايا مع بضع ساعات من التأخير. وبما أن

المدير لم يكن ذلك الرجل الذي قد يمزح مع قانون تطبيق العقوبات، فإنه كان على الساعة الثامنة وثلاث وخمسين دقيقة متيقّنا تقريبا من وجوب تأجيل الإعدام.

كان المحاميان المحيطان به، يتابعان بانشغال ركض عقارب الساعة. وكان كوام لاوو شنغ على وشك إصدار قراره النهائي عندما استولى عليه تردّد أخير؛ ذلك أنّ تأخير موعد الحُقَن المميتة بسبب سيجارة بسيطة، قد يُنظر إليه على أنه دُعابة سَمِجة، فيخلّف عواقب وخيمة على مستقبله المهنيّ. أغمض عينيه. تضرّع إلى الله طلبا للعون. وفي النهاية، أدار وجهه المرْبدَّ نحو محامي الادّعاء، قبل ستّ دقائق من حلول موعد الإعدام، ليعلن:

-أنا حقا آسف أستاذ، ولكن يجب أن تظلّ الإجراءات مطابقة للقانون. إننا في مواجهة مسألة شائكة.عليّ مراجعة رؤسائي.

-لا تقل لي إنك ستدَع نفسك عرضةً للإفحام من قِبل هذا السافل!

-ضع جيّدا في اعتبارك أنّ أيّ خرق للقانون سيفتح مجالاً رحبًا يرتع فيه المعادون لعقوبة الإعدام.

هزّت المحاميَ اندفاعةُ غضب:

-وكيف لي أن أعلن هذا للأسرة؟ ألا تعتقد أنهم عانوا بما فيه الكفاية؟

ضرّجت الحُمرة وجهه الجامد. وبدأ الانفعال يكسر صوته. فكلّ شخص يصل إلى هذه الحجرة دون أن يكون على علم بمعطيات

المشكلة سيَنظُر إليه باعتباره أحدَ أقارب المحكوم عليه بالإعدام. أمّا ديزيري جونسون فقد التفت نحو مارين باتاكي ليسأل دون أدنى غرور:

-إذن، هل سأتمكن من تدخين هذه السيجارة؟

استولت على المدير نوبة من الغضب وكأن القرار الذي اتّخذه يسمح له بالانفلات فاستدار صارخا:

-ليس هنا سيّدي، قطعا ليس هنا! ولا تعتقد أنك ستفلت من مصيرك!

رفعت المحامية الصغيرة رأسها في شموخ، وكانت ترتدي لهذا اليوم الجنائزيّ ألوانا داكنة. الشفتان مزمومتان تعلوهما خصلة شعر أسود مهملة. صحيح أن تحقيقها المضاد لم يقنع المحكمة، ومرافعتها لم تفعل شيئا لإنقاذ المحكوم عليه، ولكنّها خلّدت للتوِّ اسمها في سجلاّت القضاء بفضل الفراغ التشريعي الذي اكتشفه موكِّلُها. كانت تمدّ نسخة من الفصل 47 مستغلّة فكرة ديزيري، وهي توضّح:

-إنّ الحسم من شأن المحكمة العليا.

لم يتبقّ سوى إخطار الشهود المنتظرين في قاعاتهم الخاصة وقد بدأ صبرهم ينفد.

كان يمكن للطرفين أن يتشابكا بالأيدي لولا وجود حرّاس مسلّحين. قدّر المدير أن هذه المواجهة على عتبة غرفة الإعدام قد طالت أكثر من اللزوم. ويجب إخراج الجميع والحرص على توضيح الصورة خلال الساعات القادمة دون الخلط بين معسكر المتّهم

ومعسكر الضّحية. لا بد من حلّ التفصيل الفنّي، ثمّ المضيّ قدما آخر الأمر في تنفيذ الإعدام.

تكلّم كوام لاوو شنغ بصوت متدفّق وهو يلتفت من جديد نحو محامي الادّعاء:

-لا وجود لأيّ تغيير. المحكوم عليه هو دائما محكوم عليه. وبما أنه لم يتمّ العفو عنه، فإنه سيُعدَم في أقرب الآجال الممكنة. أعدك بذلك. ولكن عليّ أن أعرف الإجراء الذي يُتَّبع.

ثُمّ أضاف، وهو يلتفت إلى الحرّاس:

-أعيدوا المحكوم عليه إلى زنزانته.

كان جونسون ما يزال غير مبال على ما يبدو، وإن ظهرت على ملامحه مسحة خفيفة من الكآبة، لعدم قدرته على إشباع حاجته إلى النيكوتين. ولكنّ المدير لم تكن تعجبه ابتسامة المحامية التي سمحت لنفسها بأن تضيف وكأنها أحرزت للتوّ انتصارًا شخصيًّا:

-لا أعتقد أنك ستقدر على إعادة إرسال هذا المسكين ليُعدم بهذه السرعة. لا للّهو بأعصاب المحكومين عليهم!

-«سنرى. الأيام بيننا،» ردّ خصمها.

تبع ديزيري جونسون حرّاسه نحو رواق الموت عبر مسلك كان هو أوّل السائرين فيه. وفي لحظة عودته إلى الحياة، اكتفى بغمغمة ضجِرة وكأنّ الآخرين كانوا يبذلون ما في وسعهم ليُنغّصوا عليه عيشه:

-لم أكن مع ذلك أطلب الكثير.

## (2)

الحافلة خالية تقريبا، مثلما هو الحال كل مساء حين أستقلّها من المحطة في مقدمة الراكبين. اتخذت امرأة محمَّلة بحقائب من البلاستيك مكانا لها في الخلف، آخر العربة. وانتصب هنديّ ذو لحية رمادية واقفا في الوسط، وقد شدّ حول رأسه عمامة. أبدى السّائق لامبالاة تامة بصعودي إلى الحافلة؛ تجاهل بطاقة الاشتراك التي أمدّها إليه، كأنّما ليدل بذلك على أنه لم يبدأ دوامه بعد. هو يفضّل أن يرتّب سترته ويقوم بفرز مقتنيات شخصيّة مختلفة ثم يُجري مكالمة من هاتفه المحمول حتى تأزف بعد أربع دقائق ساعةُ الرحيل.

يبدو لي كل ذلك عاديا، فأتخذ بدوري مكانا لا يتاح لأحد أن يجلس قبالتي فيه كي أستغرق في قراءة صحيفة *تلغراف ليبرال* التي سلّطت عناوينها الضوء على انهيار البورصة انهيارًا عنيفًا تلا المؤشِّرات الاقتصادية الجيّدة المنشورة يوم أمس. عوِّلوا على أنفسكم كي تفهموا! بالرغم من ذلك يبدو لي هذا النوع من الغموض عاديا تماما أيضا.

انطلقت العربة على الطريق، أو بالأحرى قد استقرت، في أول ازدحام سير خلال الدرب الذي ستسلكه: هذا الازدحام في شارع النصر الذي صار يشلّ محيط الحيّ الإداري، وبشكل يومي، منذ

انطلاق المخطّط العاجل الهادف إلى جعل حركة المرور أكثر سلاسة.

لمدة سنة، خنقت حظيرة فواري كل شيء. وإثر التدشين الحافل بالأُبّهة لـ«ممرات المواطنين» المخصّصة للنّقل المشترك ولذات العجلتين وللمتزلّجين وسائقي العربات الحاملين لبطاقة ذات أولوية (ربات أسر، نساء حوامل، معاقون...)، ذهب في الحُسبان أن المدينة ستتنفس أخيرا بشكل أفضل على حد عبارة العمدة. وإذ هُيّئت هذه المسالك الخاصة في مركز شوارع المدينة، فقد أصبحت جنةَ المتزلّجين والدرّاجين الذين ينزلق أحدهم تلقاء الآخر وخوذة الاستماع على الرأس، وهو ما منح المدينة صورة شبابية أكثر، ولكنّه أعاق حركة مرور الحافلات وسيارات التاكسي. وعلى الجزء المتبقي من مسار الطريق (صفّ ضيّق على كل جانب) كانت السيارات العادية متراصّةً في انسداد متواصل يشلّ مفترقات الطرق.

ألمحُ وجوه سائقي تلك العربات. أغلبهم من الأربعينيين النّشطين المحرومين من الحقوق الاستثنائية، على النقيض من المواطنين ذوي الأولوية، ومن المنزلقين الذين يقضون وقتا ممتعا وسط الغازات المنبعثة من عوادم السيارات.

لديّ إذن الوقت كي أقرأ بتمعّن هذا المقال الذي يحتلّ صفحة كاملة بطباعة دقيقة الأحرف:

«لماذا انهارت البورصة بانخفاض البطالة؟»

أحيانا أُلقي نظرة على الرّصيف فيطالعني بعض المارّة وقد وضعوا مناديل على أنوفهم كي يتنفّسوا. ثم أميل على الجريدة من جديد دون إعارة انتباه إلى مجموعة من عشرين طفلا تلج الحافلة في

محطة تالية تحت رعاية مشرفتين. وينتشرون في الممرّ بكلّ جلبة فلا يثيرون فيّ أكثر من تأفّف، فأغمغِم: «صمتًا أيها الصبيان!»

لا أحد غيري يسمَعُ صوتي ولكنّ ذلك يريحني. تستأنف الحافلة طريقها ويعود الهدوء. وعندما أرفع بصري بعد مرور دقيقة أكتشف عرضا غريبا؛ القطيع الصّبياني من الأولاد والبنات البالغين من العمر عشر سنوات العائدين من نزهة مدرسية أو من مركز للهواء الطلقِ، قد سارع إلى احتلال جميع المقاعد الشّاغرة بإيعاز من المرافقتين المشرفتين.

ها هم الآن يجلسون جِلسة مريحة موزَّعين في الحافلة من أقصاها إلى أقصاها، يعتمرون قبّعات متشابهة ذات لون برتقالي مشعّ، ويضعون حول رقابهم شارات تحمل أسماءهم وعناوينهم. ويلبسون أزياء رياضية من طراز الماركات العالمية، ويكرَعون مشروبات محلاّة، ويعرِكون بين أيديهم لعب «الجيم بوي». لكأنّهم يشعرون بأنفسهم في بيوتهم أو كأنّهم يستقلّون حافلتهم الخاصة فلا يُتاح للركّاب المقبلين إلا أن يتماسكوا جيدا،أي أن يظلّوا وقوفا!

وإذ أراقب هذا المشهد باندهاش، تحدجني إحدى المشرفتين بنظرة نكراء. وتبدو، وقد تزيّت هي الأخرى بالقبّعة الغريبة المشعّة، ناذرةً نفسها لرعاية الأطفال حتى أنها لتنظر إلى العالم الخارجي على أنه مؤامرة معتدين محتملين. تنادي صبيّة ما تزال تتسكع في الممر:

-أودري، هناك مقعد، بجانب جوردون. اجلسي عزيزتي...

من الآن فصاعدا، جميع أماكن الجلوس محجوزة. تعاود المربّية المساعِدة النظر إليّ مرتابةً، قبل أن تبسط ذراعَها الضّخمة على كتف

غلام منمّش. بالطبع، أستطيع أن أفترض أن المنشِّطتين قد أجلستا الأطفال لتهدئتهم؛ وأنهما قريبا، سترجوان منهم القيام كي يهَبوا أماكنهم «للأشخاص المسنين»...

ولكن من الممكن أيضا أنّ الأطفال استأثروا بجميع المقاعد كيلا يحصل عليها آخرون. وسيتمّ إثبات هذه الفرضية الثانية طبيعيا انطلاقا من المحطة الموالية ثم على امتداد الطريق.

وسرعان ما لم يبق مجال للشك. فالأطفال المتشبّثون بمقاعدهم ينظرون بازدراء (أو هم لا ينظرون أصلا) إلى البالغين المتزايدة أعدادهم وهم يتزاحمون في ممرّ الحافلة المركزي. أرى الناس المساكين يصعدون متعبين وبطاقاتهم بأيديهم ولكنّهم مفعمون بالثقة لأنّهم في وسائل النقل المشترك، سعداء بإتمامهم يوم عملهم. ثم أرقب الوجوه التي تربدّ وهي تغوص داخل العربة، إثر اكتشاف أصحابها أن المقاعد محجوزة دون استثناء.

يلتصق الراكبون الجدد بالسابقين المتعلّقين بالأعمدة المعدنية لتفادي السقوط: أرى زوجين عجوزين يصعدان وبعض الإطارات الشابة الملتحمة بهواتفها وتجارا وطلابا وألمح في الأخير جميلتين ثرثارتين في الستين من العمر، محمّلتين بعلب عليها علامات المغازات الكبرى. كل واحد يقاوم في صبر زيادات سرعة الحافلة وضربات مكابحها بينما تتعالى من أماكن الجلوس جلبة التلاميذ الناعبة الفرحة ثمّ تخفّ قبل أن تغمر كل شيء من جديد.

المرشدتان لا يرفّ لهما جفن، فكلّما جاء راكب جديد يعصر الآخرين، تُلقيان نظرة دائرية، وكأنّهما تطمْئنان النفس بأن الأطفال

سيظلّون متمسّكين جيّدا بمقاعدهم. وما دامتا مُعيّنتيْن لحماية الصغار فإنّهما لا تريان موجبا لمراعاة من هم أكبر سنا في الانتفاع بالأماكن المخصّصة للجلوس. هل أنا الوحيد الذي يتذكّر تلك العهود البعيدة حين كان يتعيّن على الأطفال احترام الكبار؟

على كل حال، من الضروري أن أشير إلى أن البالغين ضحايا مثل هذه الفظاظة، يتأمّلون الصّبْية الصاخبين بتعبير من تعابير السعادة. بعضهم يوجّه نحوهم ابتسامات الأطفال وإشارات باليد تعبيرًا عن التعاطف؛ وأكثرهم طيشا يطرح عليهم أسئلة عما فعلوا في المدرسة، عن عمر أحدهم، عن اسمه، عن مقر سكناه. كل شيء آخر يبدو منسيا: الأجساد متعبة، العقول مجهدة من جرّاء يوم عمل شاق. أمّا «المسنّون» فينظرون إلى هذا المجلس الطفولي بوصفه صورة مؤثّرة لتجدّد النوع ولبقاء الإنسانية ولمستقبل العالم، إذ تبدو هذه الفكرة سندا لهم في مواجهة مصاعب أوضاعهم الخاصة.

تخلّت المرافقتان عن طريقتهما الجافة مأخوذتين بهذا الفائض من المحَبَّة، ورفعتا رأسيهما بفخر فهما محظوظتان باصطحاب الصعاليك إلى قلب هذه الحافلة بصفتهما وسيطتين بين عالم الكبار وعالم الصغار.

في سياق من هذا القبيل، سيتمّ تلقّي كل ملاحظة سيئة قد أبديها، بشكل سيّئ، إلا إذا عوّلنا على الموقف غير المعلن لبعض الشبّان الأجراء الغائصين في محادثاتهم الهاتفية وهم يرتدون ربطات العنق. تُرى إلى أيّ جانب سينحازون؟ يبدو الرِّهان منطويا على مخاطرة؛ إنّ أدنى مبادرة بإمكانها أن تحوّلني إلى كبش فداء مطارَد بهتافات حشود أصدقاء الطفولة. ولكن في الوقت نفسه يدفعني حنق مدني لا يقاوَم

إلى تنبيه المرشدتين إلى أنّ أشخاصا مسنّين يعانون واقفين مسحوقين داخل الحشد، بينما التلاميذ يلوكون أعواد الكوكا ويتحدثون عن الحلقة السابعة من سلسلة هاري بوتر...

ولغاية اختبار الشعور العام، أمُدُّ علنا عنقي وأُلقي كما اتّفق نظراتي المتوتّرة عساها تنتهي إلى لفت انتباه الستينيتين الكبيرتين المحمّلتين بالأغراض. وكما لو كنت أحدِّث نفسي، أنطق عبارات تعجّب قابلة للتمييز أكثر فأكثر:

-غير معقول! هم الملوك حقا! ما من أحد يقوم ليترك مكانه!

أهزُّ حاجبيّ وأنا أتلفّظ بهذه الكلمات، كي أبيّن مدى صدمتي إزاء الوضع القائم. أشعر بأنّ الأغلبية ستميل إلى صفّي، فأواصل تصنّعي لبضع ثوان، آملا في مساندة من هاتين السيدتين النشطتين المرتديتين ثيابا على الطريقة القديمة، السيدتين اللتين شهدتا تربية أخرى بكل تأكيد. فإذا بأطولهما قامة تتفرّس فيّ حانقة بدورها. ثم ينتهي بها المطاف إلى الالتفات إلى صديقتها قائلة بصوت أجشّ:

-لا أعرف ما به. يبدو أنه لا يحب الأطفال!

ضاعت قضيّتي؛ ها قد وقع تجاوزي حتى من قبل العجائز. وبالتالي فإن مواصلة الصراع ستكون بلا طائل. أفضّل أن أعود إلى الاستغراق في قراءة الأخبار الاقتصادية مستأنفا مقالي «لأي سبب يُترجَم استئناف النموّ بزيادة العجز؟»

وبينما أنا كذلك، إذ بنباح يجعلني أنتفض:

-مكانك، سيّدي، أنا حامل...

أعتدل في جلستي فزِعًا فأجدني قبالة شابّة مكوَّرة البطن، تتفرّسني في غير ودّ. وبينما أطوي جريدتي على عجل، تلحّ هي عليّ بصوت قبيح لافتة انتباه قسم من المجتمعين:

-لو كان لديك حدّ أدنى من اللّباقة، لكنتَ قائما الآن.

أغمغم، وأنا أترك لها مقعدي، بأنّ على الأطفال أن يقوموا أوّلا. و لكن، إذ أدافع عن نفسي على هذا النحو، ينتابني شعور بأنني أنا نفسي أرتدّ إلى الطفولة. يصوِّب في اتجاهي صبيان عديدون نظرة بلهاء، وشفاههم تتلمّظ السكاكر. يراقبونني باعتباري شخصًا جِلْفًا غريب الأطوار، قبل أن ينغمسوا في ألعابهم من جديد. وعميقا في الخلف، تتفحصني المرأتان المحمّلتان بالأغراض بتعالٍ وكأنّني شاذّ وغير مؤدّب.

* * *

تطلب لطيفة مني أن أنتبه. فمن شدّة تذمّري من الأطفال، سينتهي الأمر بي إلى جلب المتاعب لكلينا. ولكن باعتبار المكان الذي أعمل فيه والظروف التي ينبغي أن أتصرّف وفقها، فإنه ليس من السهل النظر إلى هؤلاء الغيلان الصّغار بعين الرّضى.

يُبرز عمدتنا، وهو أيضا رئيسي في العمل، عبقرية كلّما تعلّق الأمر بمداعبة الرّأي العام بشعارات من قبيل: «مزيدا من المساواة بين الجنسين» «مزيدا من الأماكن للدرّاجين والمعاقين»، «مدينة أكثر إنسانية وتصرّف أكثر شفافيّة» وبطبيعة الحال، «مزيدا من الانتباه تجاه الأطفال».

قبل انتخابه المظفّر،كان قد سجّل في برنامجه مشروعا يهدف إلى تحويل جزء من الحيّ الإداريِّ، مقرِّ مصالح المدينة الرئيسة، إلى محضنة. وبعد بضعة أشهر تحوَّل جناح مكاتبنا الأيسر برمّته إلى دار حضانة تشتمل على مدخل خاص بالأمهات ونسلهنّ.

ولأنّي كنت ملتزما بالحياد الذي تفرضه وظيفتي باعتباري موظّفا بلديّا لدى إدارة المصالح العامة، برتبة مستشار فنّي، فقد تحسّرتُ في صمت على هدم مقرّات وظيفية كان يطيب فيها العيش. ولقد لاحظت أيضا، وأنا أمرّ أمام مدخل المحضنة، نبرة الاحترام الإنساني المعسولة التي يستقبل بها الحرّاس الأطفال، يدغدغون منهم الذقون ويربِّتون بحنان على أكتافهم قبل أن يهنّئوا الأمهات على هذا العمل الرائع. إنه موقف يتناقض مع نظراتهم الحذرة حين يقفون في مدخل الموظفين ويطالبوننا بشاراتنا بطريقة جافّة، دون بذل أدنى جهد للتعرّف إلينا من يوم إلى آخر.

بتشجيع من الصحافة المُهلِّلة، ارتأى عمدتنا أن يستهلّ ولايته الثانية بضربة جديدة يلمّع بها صورته، إذ تسمح له بمزيد إظهار نفسه على أنه صديق الحياة و الشباب، صديق الطفولة والحركية. هكذا صوّت مجلس الهيئة المنتخبة على قرار 10 أكتوبر الهادف إلى مدّ مركّب المحاضن ودور الحضانة إلى جميع بنايات الحيّ الإداري حيث خُصّصت نصف المكاتب المتبقية للمصالح البلدية. وكان القرار يتضمن عبارة «التعايش السعيد» بين موظفي الحيّ الإداري وأبناء الجيل الجديد الذين سيقتسمون من الآن فصاعدا الفضاءات نفسها. أصبح الرّضّع منذ هذا التاريخ (وكذلك الأكبر سنا في غير أوقات

الدرس) يمرحون في كلّ مكان تقريبا داخل المقرّات.

كان الإجراء يصبّ في اتّجاه مشروع آخر كبير: تخفيض خطط الموظفين إلى النصف، وسيقع مستقبلا التعاقد خارجيا. فبعد رافعي النفايات وعمال البستنة وأعوان بلدية لافواري فإنّ جلّ وظائف المكاتب أحيلت إلى الخواصّ للحدّ من التبذير.

في هذا السّياق الملائم للنضال النّقابي كان تحويل المقرّات الإدارية إلى قاعات للّعب، يهدف إلى البرهنة على أنّ التزام العمدة الاجتماعي لم يفقد شيئا من قوّته: إنّ فصل أناس راشدين من وظائفهم فجأة لن يخلّف إلاّ ردود فعل سيئة؛ أما تعويضهم بأطفال يحلّون محلّهم، فإنّه سيذكّر باهتمامه الذي لا يكلّ بالضعفاء ويدعونا إلى القيام بهذا التغيير في جوّ من الحبور. وبما أنّ المدينة لم تعد تمثّل «ضمانا اجتماعيا» لموظفين متشبّثين بامتيازاتهم المكتسبة، فقد أصبحت تميل إلى تركيز إمكانياتها على الأطفال الصغار بأن تخلق دفعة واحدة عدة مئات من خطط مساعدي التربية.

بدت لنا هذه الطريقة في العمل غريبة في البداية. وسواء كنا أطفالا أو عمالا فإننا سندخل جميعا في المستقبل من الباب الكبير نفسه، غير أن موقف الحرّاس لم يتغير البتّة: التربيتة الحنون على الكتف لمن هم دون الثانية عشرة؛ والنبرة الكريهة والمطالَبة بالشارة بالنسبة إلى الموظفين. وحسب ملحوظة إدارية بُثّت من مكتب العمدة، طلب من الأعوان البلديين توفير «أفضل استقبال ممكن» للأطفال الذين قد يضطرون إلى الاحتكاك بهم في فضاءات العمل أو السير معهم جنبا إلى جنب في أروقة الحي الإداري.

وفي إطار من الانشغال بإشاعة روح المنافسة رأت إدارة الموارد البشرية أنّه من الحكمة المراوحة بين المحاضن والمكاتب في داخل المباني نفسها. لذا كثيرا ما يحدث لي، عندما أرقن تقريرًا على حاسوبي، أن أسمع نقيق الشراغف[1] التي تستصرخ أمهاتها في الحجرة المجاورة.

وإذا كان طاقم الموظفين يجهد نفسه في احترام بعض قواعد العيش المشترك، فإنّ الأطفال يسمحون لأنفسهم بفعل ما يريدون، وقتما يريدون، وأينما يريدون. وليس من النادر عندما أتوجه إلى دورة المياه أن أجد الممر تسده مقابلة في لعب الكُجّة أو الحجلة. ولكن عليّ أن لا أضايق الملائكة بتاتا وإلاّ اغتنموا الفرصة للشكوى إلى مساعدي التربية. وطوال اليوم هناك موظفون سامون محمّلون بالرسائل أو بالتقارير ينتظرون أن يتكرّم عليهم الأطفال ويفسحوا لهم الطريق. وحده العمدة ومساعدوه لا يزالون يتمتعون بفضاء محجوز خاص، ورغم ذلك، فهم غير معفيين من أن يعبروا بين حين وآخر ممرًّا مكتظا بالأطفال تحت العدسات المطقطِقة لمصوّري الصحافة. لقد أسهم هذا الجزء الجديد من العمل البلدي في استعادة الفريق لشعبيّته لدى رأي عام منبهر برجل قرّر «الخروج على السبل المسطورة» في إدارة المدينة «بجرأة وخيال» يقطعان مع «طريقة تصرف سلفه الهامدة».

حيال هذه الثورة أظهر طاقم الموظفين حدا نسبيّا من الخنوع. شطر مهمّ منهم يلعب اللعبة علنًا فلا يأتون صباحا مطلقا، إلاّ ومعهم فراولة التاغادا لتوزيعها. وثلث من زملائي يميل إلى اللامبالاة أو يبدي سحنة متبرِّمة إزاء المدّ المتعنّت لهذه الموجة الطفوليّة: «لا حيلة

(1) مفردها شرغوف. وهي صغار الضفادع. (المترجم).

لنا في ذلك، كل شيء سيزداد سوءا وأفضل ما نقدر على فعله هو أن نتأقلم مع الأوضاع ونؤدّي مهمتنا...» وفي الأخير، هناك أقلية تمقت هذا التعايش، أنا واحد منها.

في أحيان كثيرة خلال اجتماعات لجان المشاريع الكبرى، كنت أسمح لنفسي بأخذ الكلمة لأعبِّر عن تحفظاتي. ودون أن أتطرّق إلى لبّ الموضوع، إذ هو أمر من اختصاص السياسيين، أؤكّد على الصعوبة العملية القصوى التي ستنجرّ عن مثل هذه المواجهة بالنّسبة إلى عمل كلّ واحد منّا. وفي كلّ مرّة كان مدير عام المصالح ونائب العمدة يستمعان إلى حججي، بل ويسعيان إلى طمأنتي مؤكّديْن على أنّ كلّ شيء سيكون موضع تنفيذ ومتابعة بشكل لا يضايق طاقم الموظفين.

وفي الاجتماع الأخير، بدت مداخلتي، مثيرةً للإزعاج.

-لماذا هذا الإصرار على النظر إلى الأطفال على أنهم أفراد مضايِقون؟

هكذا انتهى العمدة إلى الحسم عبر التذكير بأن الذين أُنتُخِبوا قد اختاروا ما بدا لهم أفضل خيار لمدينتنا؛ وبأنّه لا ينبغي أن نضع هذا الخيار تحت طائلة الشكّ إلى ما لا نهاية له لأسباب فنيّة. وأُقفل باب النقاش. إذا كان حضور الأطفال قد ألان عريكة الأغلبية فإنه يستثير توتّر الآخرين؛ الحقوق التي تُمنح لهم وتُنكَر علينا، العجرفة التي فهموا من خلالها أنّنا سنكون من هنا فصاعدا *في ديارهم*؛ كل هذا كان يبدو لي بمثابة إهانة متواصلة. إننا نتجنّب النظر إليهم ونرفض الإجابة عن أسئلتهم، أو نسخر منهم إذ نشكّل بأصابعنا

ما يشبه المزمار على أنوفنا. ومع ذلك علينا الحذر من المراقبة المستمرة من قبل مساعدي التربية الذين خلّفوا إلى الآن عددًا لا يُستهان به من الضحايا.

المسار هو نفسه دائما؛ أيّ موقف مُعادٍ تجاه الأطفال ينتهي بأن يلتقط ثم يتم التبليغ عنه لدى مصلحة الموظفين المشغولة بإزاحة أيّ خطر محتمَل على الناشئة! ففي غضون ستة أشهر وقع على سبيل الوقاية نقل عشرةٍ من المشتبه بهم إلى مكاتب خارجية لأنّ البلدية تعتزم حماية رعيّتها الفتيّة قبل كل شيء.

بإيجازٍ، هذا هو الجحيم الذي آمل الإفلات منه كل مساء عندما أخرج من الحيّ الإداري لأعود إلى بيتي. ولهذا السبب كان مشهد الحافلة العديم الأهمية، يبدو لي غير قابل للاحتمال وكأنّ سرب الذباب الذي أفسد نهاري، يواصل ملاحقتي على الدّرج وفي الشارع وفي الحافلة وفي كل مكان؛ وكأنّ الشرّ ينتشر إلى درجة يستحيل معها الإفلات منه، فمن الآن وصاعدًا في هذا البلد، الأطفال هم الّذين يمثّلون القانون.

* * *

أدخل زقاق الهورتونسياس، بعد أن عبرت شارع شرشل صعودا ثم استدرت عند زاوية المكتبة المهجورة. هو طريق فرعي مزهر تصطف فيه البيوت الصغيرة سليلة الفن الجديد على بعد خطوات من مركز المدينة. يرتفع بيتي عموديا، بطابقيه المشيّدين بالطوب الأحمر وسطحه الحاد ونوافذه الصغيرة التي تتخذ شكل ألسنة من اللّهب. وبينما أصعد في ممشى الحديقة يسارع إليّ كلبي حتى يكاد

يسقطني أرضا وهو يضغط بقائمتيه الأماميتين على بطني. هو من سلالة السبانيال. فروه الأبيض الطويل مبلّل (لا بد أن أطفال جارنا قد استهدفوه بأنبوب السقي الخاص بهم).

يدور حولي باهتياج حتّى أهتف به مهدِّئا:

-اضطجع ساركو!

أداعب فروه الرطب ثم ندخل معا المسكن الجميل المتواضع الذي أتقاسمه منذ ثلاثة أعوام مع لطيفة. (رقعة أرض من ستين مترا مربعا، وغرفة في كل طابق) تتضوع في البهو رائحة أرنب مطبوخ بالأعشاب، محفّزة حليمات التذوق لديّ. في معظم الأحيان تقضي صاحبتي النهار في المطبخ، وهي تعبّر عن ذلك بطيب خاطر: «أفضّل الذهاب إلى السوق على التوجه إلى المكتب». وها أنا أوّل من يمتنّ لذلك بما أننا آلينا على نفسينا أن نعيش معا من أجل المتعة دون أن نشغل بالنا بالفتافيت[1] على الإطلاق، إلاّ إذا استثنينا شرائح الشحم الصغيرة التي تعيدها لطيفة إلى المقلاة لتبهير المرق. هكذا هي لطيفة: تُفضّل الرجال على الأطفال مع أن شعورا بالأمومة ينهشها من حين إلى آخر متخطّيًا جهودي الرامية إلى صرفها عن هذه الأفكار السّيّئة.

لقد التقينا في حفل موسيقي لفيلارمونيكا في فيينا. وُجِّهنا للجلوس جنبا إلى جنب وكان جسمانا في ذلك اليوم مشدودين إلى حالة الابتهاج نفسها ليتشرّبا هذه الموسيقى السعيدة: «كونشرتو على

---

(1) كلمة عامية تطلق على أكلةٍ تطبخ من لحم وعجين وفي الوقت نفسه تُطلق على الأطفال الصغار. واستعمل المؤلف كلمة lardon وهي في العامية الفرنسية تعني «طفل» وتطلق في الفرنسية الرسمية على شرائح لحم الخنزير. (المترجم).

الأوبوا لريشارد شتراوس».

أثناء الفاصل، شربنا كأسا من الشامبانيا في الردهة قبل أن أودّعها. وبعد أيام قليلة، التقينا صدفة في حفل الجائزة الكبرى السينمائي الذي أقيم في قاعات الشرف بالحيّ الإداري. جاءت بصفتها مراسلة لجريدة نسوية تُحرِّر فيها عن «وجوه المجتمع» بضع صفحات بلا شغف ولكن بقدرٍ ما من المتعة.

بدت لي أجمل من المرة الأولى. كنت أعشق قوامها الفارع الضامر، قوام فتاة بورجوازية مصرية نما بسرعة هائلة. كما كنت أعشق طريقتَها في الضحك على كل شيء، وعينيها الوقّادتين وصدرَها المسطّح بعض الشيء.

نشترك أنا ولطيفة في انعدام الطموح. كانت شهائدي العلمية تعِد بتدرّج لامع في الدواوين الوزارية شرطَ تكريس ما يلزم من الوقت في حياكة المؤامرات. ولكن بدلاً من ذلك، أدركتُ الخامسة والأربعين، وأنا مجرّد مستشار فنيّ في المدينة. وكانت لطيفة بذكائها وسحرها قادرة على أن تصبح صحفية مشهورة...

قام كل واحد منّا بالعملية الحسابية نفسها: يمكن بواسطة تركة صغيرة (ورثتها عن أمّها) وراتب لا بأس به هو راتبي، وحسّ حادّ بالحياة، وفضول من أجل الفن والمشاهد الجميلة وكلّ المتع اليومية، أن نحيا حياة مثيرة للاهتمام أكثر من تلك التي ترتكز على سعي لا ينقطع لتبوّؤ مناصب أعلى، وعلى تحصيل رواتب أكبر تُخصَّص لدفع ضرائب السنة الفائتة.

كان أبيقور يؤكّد على الحياة من أجل المتعة، ولا شيء حسب

رأيه يجلب لنا متعة أكبر من كوب ماء وقليل من أشعة الشمس. على هذا المبدإ تقوم منذ ثلاث سنوات، حياتنا الزوجية المكرّسة لممارسة الحب، والقراءة، وتذوّق أطباق صغيرة رائعة، وقضاء بضعة أيام في فندق جميل على شاطئ البحر، وملاقاة أصدقائنا (قليلي العدد وبلا أطفال)، وحضور العروض الموسيقية، والذهاب إلى السينما، والنوم، وتعهّد حديقتنا. ومن أجل كلّ هذه الأسباب أعدّت لطيفة صلصة الأرنب التي تستكمل نضوجها في القدر على نار هادئة.

لحظة دخولي الصالة، كانت امرأتي الجميلة الفارعة تبحر على الأنترنت، تجمع شيئا من القيل والقال من بيئة الموضة، قد تستعمله في مقال *قد* تكتبه... هذا إذا كانت لديها الرغبة ومتّسع من الوقت. تلتفت إليّ لتهبني ابتسامة فاترة. شعرها الكستنائيّ الفاتح يؤطّر وجها تنبئ ظلاله وخدوده عن شيء فكه ونشيط يكاد ينسيني كابوس الحافلة.

في كل الأحوال ليس لديّ الوقت لأحدّثها عنه، فمن الواضح أنّ فكرة واحدة تدور في رأسها قبل العشاء. فكرة تُترجَم بسؤال:

-أين نفعل ذلك؟

أذكر أننا في الآونة الأخيرة، فعلنا ذلك على مائدة الطعام ثم في أجمة أقصى الحديقة (تحت أنظار الجيران تقريبا) وفي مرّات عديدة على سريرنا، ولكننا منذ مدة طويلة لم نفعل ذلك في القبو قرب خزّان الوقود. فهذا يمكن أن يكون له طابع دهني بروليتاري ينزّ عرقا. أدعو عزيزتي إذن، على الدرج، وأطرد ساركو المتأهّب دومًا لاتّباعنا، بركلة صغيرة ودودة نحو وِجاره.

في ذلك المساء لم تفكّر لطيفة بصوت عال إلاّ في وقت متأخّر جدّا أثناء شرب كأس من كحول الإجاص وتدخين سيجارة، وبعد أن تناولنا العشاء، ولعبنا دور شطرنج. بدا وكأنها فكّرت يومئذ في الأمر مرّات ومرّات:

-لعله أمر جيّد أن يكون لنا طفل.

تراني وأنا أختنق وكأس الشراب يعلو حلقي مائلا. ثم أوجّه إليها نظرة حائرة وكأنها كانت تقترح عليّ الذهاب لقضاء إجازة في لاس فيجاس أو سان تروبيز!

إنها تعرف كلّ الأسئلة المضمَّنة في موقفي: «ما الدّاعي إلى إنجاب طفل؟ لنمسح مؤخِّرته؟ أم لتربية ناكر للجميل؟ أليس هذا ضدّ خيارنا أن نعيش معاً؟» ودون أن يكون لديّ الوقت لتشكيل هذه الاعتراضات، تحاول لطيفة أن تقدّم لي إجابة:

-قريبا، سيكون الأمر متأخرا جدا بالنسبة إليّ، ولا أريد أن أندم على ذلك في يوم من الأيام.

هل تنتهي هذه الحاجة الغريبة دوما، إلى أن تدغدغ النساء؟ أفضّل أن أصمت وأمسك بيدها على أمل أن تنخفض سريعا موجة الحمّى هذه مرّة أخرى.

## (3)

رجاءً أيها السادة المصوِّرون!

كان مسؤول الأمن، وهو باكستاني ثقيل الجسم حليق الرأس، يرتدي بذلة بلازير وربطة عنق، يفسح الطريق. يمدّ ذراعين عريضتين يدفع بهما على الجانبين جمهرة مقتنصي الصور المتجمّعين أمام قصر العدالة وبأيديهم أجهزة التصوير ذات المقابس الوامضة والعدسات الفاضحة.

لم تكن مارين باتاكي لتتخيّل مطلقا أنها يمكن أن تبلغ هذه الدرجة من اهتمام مصوِّرين محترفين. حتى وهي مراهقة، كانت تتجاهل حلم الساذجات الرومانسيات هذا الذي يتحقق اليوم. وها هي ترقب باندهاش هيجان هذه الجرذان المستعدة لأن يطأ بعضها بعضا من أجل الوصول إلى فريستها، الجرذان المصمِّمة على دوس كل معترض ثقيل يمنعها من إنجاز عملها، ما يدلّ دلالة واضحة على أن هذه المهنة، مثل مهن أخرى عديدة، لم يعد لها قيمة كبيرة. ففي إطار خفض تكاليف إعادة هيكلة وكالات الأنباء، تركت مغامرة المراسل الصحفي المجالَ لنفاد صبر زمرة متكالبة جائعة. ولم يكن مصير المحامين أمرا يحسدون عليه، ولا مصير آلاف المهن الأخرى التي رُدّت جميعا إلى السّعي المرهِق نفسِه مقابل أجر زهيد، باستثناء

بعض المناصب العليا في التجارة والمالية.

أمام هذا الانهيار العام للمهن، كانت مارين تشعر شعورا قويّا بأنها قد تلقّفت للتوّ فرصة العمر، الإمكان الوحيد للإفلات من كتلة المحامين المُعيَّنين من قبل الدولة الطافين على مياه العدالة السفلى الراكدة.

لم تقدها سنوات من العمل الدؤوب إلى أيّ شيء، بما أن موكليها كانوا في الغالب ميؤوسا منهم، جرائمهم خسيسة وإدانتهم ثابتة (وبمجرّد أن يلوح خطأ قضائي ما، يستحوذ أحد مكاتب المحاماة الكبيرة على القضية ليستفيد منها إعلاميا).

كذلك كانت مارين على وعي بمواهبها المحدودة التي بدت قدَرًا محتومًا لا يتردّد في إدانة الأشخاص الذين تدافع عنهم بأقسى العقوبات. وهو ما يفسّر أنّها أدركت الرابعة والثلاثين من العمر وقيمتُها في سوق المحاماة تُعادل الصفر تقريبا. في حين كان محامون آخرون من جيلها يتقدمون بتفوّق نحو الثروة. وبالرغم من ذلك، تحوّلت المرأة الشابة بين عشيّة وضحاها إلى المحرّك الرئيس لقضية دولة، تضايقها وسائل الإعلام وتترجّاها للتعبير عن رأيها في القضية.

أفسح لها مسؤول الأمن الطريق وهو يصُدّ مَدَّ المصوِّرين، إلى غاية سيارة الليموزين التي أعارتها إيّاها شركة التبغ العامة. وعند وصولها إلى العربة التفتت مارين باتاكي إلى الصحفيين وأعلنت بنصف ابتسامة:

-لا أستطيع أن أقول شيئا في الوقت الحاضر، سوى أننا ننتظر بثقة القرار الذي ستصدره المحكمة العليا بعد ظهر اليوم.

توقّفت الشائعات. وأصبحت الصحافة تستمع إلى كل كلمة تتفوّه بها المحامية التي صارت بدورها، ويا للغرابة، تشعر بالراحة في هذه الوضعية المركزية. هل كان ذلك لأنها رأت كيف يتصرف الآخرون خلال التحقيقات التلفزية؟ هل كان ذلك ملازما لكل وضع يُسنِد إليك سلطة طبيعية؟

غاصت في السيارة وهي تشعر بارتياح كبير، بينما كانت الأسئلة تنهمر عليها من جديد. وأطلقت في اللحظة المناسبة وهي تقطع حركتها بحِرفِيّة تامة، المعلومات التي انتقتها مسبقا:

-لقد طالبت بإجراءات لمراجعة حكم الإعدام... فطبقا لتقليد قضائي قديم جدا، يمكن أن يتعرّض للإلغاء بعفو خاص حكمٌ بالإعدام امتنعَ تنفيذُه لسبب غير متوقع. وكان هذا في ما مضى يسمّى «يد الله». اليوم يمكن أن يكون ذلك فرصة للتفكير في ملف العقوبة القصوى وجوانبه الغامضة... وقبل كل شيء التفكير طبعا في الحالة الخاصة بالسيد جونسون الذي ما تزال إدانته بعيدة الإثبات. أشكركم.

وبثقة أولئك الذين يقرّرون متى يتكلّمون ومتى يصمتون، أغلقت باب اللّيموزين وتركت نفسها تُقاد إلى مقرّ شركة التبغ.

كان مسؤولو الشركة متعدّدة الجنسيات الملاحَقون منذ سنوات بسبب نشاطهم في المتاجرة بالموت، قد اكتشفوا مبكرا وقبل ثمانية وأربعين ساعة التأجيلَ المذهل لإعدام ديزيري جونسون. وقد بدا لهم هذا الحدث شبيها بالمعجزة: الإشارة الموجبة التي انقطع انتظارهم لها. وعلى الرغم من أنّ الأمر يتعلّق بمجرم مدان بالعقوبة

القصوى فإن التحوّل القضائي المذهل المعلَن من قبل الصحف كان يقرن لأول مرة *التدخين بـالحياة*، وذلك ما لم ترتق إليه أيّ دعاية من قبل ولا اهتدت إلى القيام به. لقد وقع للتوّ إنقاذ شخص بواسطة التبغ لبضعة أيّام على الأقلّ (في انتظار قرار المحكمة) وهكذا جعل فصلٌ قانونيّ منسيٌّ من السيجارة أفضل صديق للإنسان. إنّه بصيص من الأمل يظهر فجأة لسلسلة اقتصادية مهدّدة برمتها. فبعد تأجيل تنفيذ الإعدام مباشرة، قامت مارين بإبلاغ الصحف، وفي بضع ساعات، انتشر خبرُ القضية كبقعة زيت. وعند منتصف النهار كانت وسائل الإعلام قد اجتمعت أمام السجن لنقل الحدث.

وفي الرابعة اقترح قسم الدِّعاية بشركة التبغ العامة على المحامية أن يضع تحت تصرّفها الوسائل اللازمة لإعداد هجومها القضائي المضاد: المقرّ، ودفعة أولى بـ30000 أورولار من أجل النفقات وسيارة وظيفية.

كانت صحف الصباح قد أُفرِدت على مقعد السيارة الخلفي. قرأت مارين عنوانا ثم آخر. فوجدتها جميعها تعلن عن القضية في صفحاتها الأولى. ولكن لم يكن سهلا رؤية الأمر بوضوح بين وجهات النظر المختلفة تلك، وقد طغى عليها التناقض:

«عندما ينقذ مناهضو التدخين قاتلاً»، كان هذا عنوان *مرآة اليوم* الجريدة المحافظة إلى حدٍّ مّا.

وحسب رأي كاتب افتتاحيتها، فإنّ حظْر التدخين الذي كان يتمدّد في كل مكان داخل البلاد ليبلغ الشقق الخاصة القائمة في البناءات المخصصة لغير المدخّنين، يكاد يقترب من مضايقة الحياة

الشخصية متجاوزا الحد المقبول في الديمقراطية. وتبعا لذلك، نحن نتحمل اليوم بشكل مخصوص، سوء العاقبة، إذ ينقلب النظام الداخلي لمركز عقابي لصالح القاتل وضد الانتقام العادل للضحايا. كانت وجهة النظر هذه المدافعة عن استهلاك التبغ تسير في الاتجاه الذي تريده شركة التبغ؛ ولكنها كانت تنقلب ضد المتّهم ومحاميته بمطالبتها بتنفيذ عاجل للعقوبة فور احتراق سيجارة المحكوم عليه.

بدقة أكبر كان صحافي الوقائع بجريدة *الديمقراطي المستقل* يتساءل عن هذه المفارقة: «ما الداعي إلى حماية رئات المجرمين في رواق الموت؟»

من المؤكد أن النظام المفروض من الروابط المناهضة للتدخين كان يرمي في المقام الأول إلى حماية الطاقم السجني من التدخين السلبي؛ ولكن من وجهة نظر أخرى بما أن السجائر مضرّة بالصحة إلى هذه الدرجة، فليس هناك سبب لمنعها عن أشخاص نريد إبادتهم.

كان الموقف المناهض للتدخين يهيمن بشكل واسع لدى المعلّقين الآخرين؛ ولكن هنا أيضا، ظهر خط صدع يفصل بين أولئك الذين يرون في هذه القضية فرصة لتوسيع معركتهم من أجل الحياة («لا للتدخين، لا لعقوبة الإعدام!» وهو عنوان حملته جريدة *تلغراف ليبرال*) وبين العقول الصارمة التي تطالب بمنع التدخين في عموم الإقليم دون أي محاباة للمحكوم عليهم. («نعم للحقنة لا للسيجارة!» موجز مقال ورد في *المنبر الجمهوري*). وحسب هؤلاء، كان ديزيري جونسون ومحاميته يلعبان على النصوص. ومقابل هذا الاستفزاز كان على محكمة العدل العليا أن تمضي قدما في إجراءات

تنفيذ حكم الإعدام دون نقاش وأن ترفض الدخول في تأويلات دقيقة لفصول قانونية عفا عليها الزمن.

كانت الليموزين تصعد في شارع الرئيس بوش الذي يقسمه ممشى مزهر إلى شطرين. وكانت ترتفع في هذا الجانب وذاك بناءات فخمة من الحجارة أو الزجاج أو الفولاذ متوّجة بلافتات تحمل أسماء شركات شهيرة. هنا يُقوَّم كل متر مربع براتب مارين لأشهر عديدة، مارين التي تقطن شقة صغيرة في مركز المدينة.

قبل خمسة عشر عاما، كانت لا تزال تؤمن بالراديكاليّة السياسية المصطبغة بشِعر بوهيمي تأثّرا بأصدقائها الفنانين. واثقة في المستقبل، كانت تناضل ضمن جماعة نسوية، وفي إطار الحركة من أجل السجناء. ولكنّ حساباتها أثبتت خطأها: ففي الوقت الذي تخلّت فيه عن الكفاح من أجل حقوق النساء بعد أن بدا لها أمرا وقع تجاوزه، استحوذت على القضيّة فتيات أكثر منها دهاءً ليتعقّبن في كل مكان آثار التمييز على أساس جنسي، بنجاح غير متوقع!

ازداد اهتمام مارين بمصير المحكوم عليهم بالإعدام، فجميعُهم تقريبا من الرجال الملوّنين المنتمين إلى الأحياء الفقيرة، المدانين مسبقا بفعل أعراقهم وأصولهم الاجتماعية. ولكن في مواجهة العنف المتصاعد، اتّخذت العدالة منحى وحشيّا وقمعيّا بمباركة من وسائل الإعلام إلى الحد الذي أصبحت فيه معركتها ميؤوسا منها في معظم الأحيان. فلم تتمكن يوما من إنقاذ رأس من رؤوس موكّليها. ذلك أنّ عدم دقة تحقيقاتها وضعف مرافعاتها وطريقتها الخرقاء في اتهام الضحايا -حتى حين يكون جرم القاتل بيّنا لا شكّ فيه- أسهمت

جميعًا في الإسراع بموكّليها بشكل مؤكد نحو الحقنة المميتة. وهكذا تعلّقت بها في محيط المحامين الجزائيين كنية *الموت المباغت*. وصاروا يشفقون سرّا على المتهم الذي كان يلجأ إلى خدماتها مُغرى بمزعم أنها «خبيرة» إجرام، ولا سيّما بالأجر الزهيد الذي ترضى به ويتقاضاه المحامون المعيّنون من قبل المحكمة.

توقف السائق أمام بناية شركة التبغ العامة ذات الرخام الأبيض. كان الصرح وهو من طراز فن الزخرفة يضيق في شكل درج نحو السماء. وكان للقباب البرونزية القائمة على كل حافة لونُ صدإ نحاسيٍّ أخضرَ جميل. وعلى المدخل الهائل منحوتة موشّاة بالورق المذهّب تجسّد يَدًا تمسك بسيجارة ترتفع منها مخروطة حلزونية تذكّر بالعصر الذي كان يُنظر فيه إلى التدخين على أنه حركة رشيقة.

فتح الخادم باب الليموزين ووطئت مارين بحذائها الرياضي السجّاد الأحمر؛ تقدّمت تحت سقف يظلل عتبة المدخل باتجاه البهو الشاسع حيث كان ينتظرها مسؤول بقسم الاتصالات. وولجا المصعد الذي ارتفع بهما نحو قاعة الاجتماعات بالطابق الخامس عشر. كانت الحجرة المحاطة بنوافذ الزجاج تشرف على المدينة كما لو أنها مرصد فلكي. وكان نائب الرئيس ومدير الشؤون القانونية ومساعدوهما يقفون حول مائدة من الخشب الملمَّع بيضاوية الشكل ومجهزة بالمصادح والحواسيب.

شعرت المحامية بدوار خفيف: لم يدر بخلدها مطلقا، أنّ مكانها يمكن أن يكون هنا بين رجال الأعمال هؤلاء لإعداد ضربة دعائية. هل ستكون قادرة على التحدّث بلسان إطار مختص، والتجادل بشأن

حياة إنسان مع مروّجي الإعلانات؟

استرجعت أنفاسها وهي تفكر في أن مصيرها الاجتماعي على المحكّ، واختارت أن تتواصل مع ابتسامة نائب الرئيس المشجِّعة بصفته مسؤول الاتصالات:

-هل يمكن إخبارنا أستاذ...

-أستاذة! صحّحت المناضلة النسوية السابقة.

كادت تلوم نفسها على هذا السلوك العدواني الطفيف، ولكنها شعرت بأن أمرا من هذا القبيل سيثبّتها في موقعها ناطقة باسم العدالة والقانون.

-أرجو المعذرة. أستاذة، أحب أن أعرف ما تنوين الترافع بشأنه عصر هذا اليوم خلال الجلسة المغلقة المخصصة للاستماع إليك من قبل محكمة العدل العليا؟ يجب أن... نتمكن من إعداد مداخلتنا على قاعدة من البرهنة الواضحة!

-نعم! تدخّل مدير الشؤون القانونية مقاطعا. آسف على المقاطعة فرانسوا، ولكن أعتقد أنّ علينا معرفة ما نريد: بين الحجج المناصرة للتدخين والحجج المضادة، بين الموالين لعقوبة الإعدام وخصومها، كلّ واحد يستطيع بناء النظرية التي يريد، ويجب الاعتراف بأننا تائهون قليلا...

تناول الكلمة حقوقي صغير يضع نظارات ليعرض بدوره وجهة نظره:

-لا أريد أن أبدو متبجّحا، ولكنّ أكثر المطالب عقلانية في

تحليل أوّلي، تتمثل في المطالبة ببساطة بتطبيق القانون الجزائي: الامتثال التام للقانون. بعبارة أخرى، يُسمح للمحكوم عليه بأن يحقّق رغبته الأخيرة: أن يدخّن سيجارته ثم يُحقَن!

كانت وجهة النظر هذه تبدو مناسبة لنائب مدير الدعاية الذي استأنف:

-بالنسبة إلينا سيكون لهذا مزيّة وهي عدم الدخول في نقاش حول عقوبة الإعدام. سنكتفي بالتأكيد على أنه في هذا العالم المتزمّت حيث المعادون للتدخين ينشرون الرعب، يمكن أن تكون الرغبة الأخيرة لرجل هي بكل بساطة أن يدخّن سيجارة: رسالة جميلة في سجلّ المشاعر.

-اتفقنا. -تولّى صوت مواصلة الحديث-، ولكن... أحببتَ أم كرهتَ، كل هذا يدعم المثلث الرمزي مجرم-تدخين-موت. وليس هذا جيدا بالضرورة بالنسبة إلى سوق السجائر.

تنحنحت مارين مُستغلّةً لحظات الصمت. فقد بدا تردّد محاوريها في اتخاذ قرارٍ أمرًا يخدمها. والآن عليها أن تتكلم دون أن تخطئ. فظهورها بمظهر الخانع أكثر من اللازم لشركة التبغ العامة، سيحطّ من سقف رهانها؛ وستتضاءل القضية من حيث مداها الزمني واتساعها وسموّها الخلقي وربحيتها.

عرضت بصوت هادئ وجهة نظرها:

-طبعا أنا أتفهم انشغالكم وأشكركم على السّند المالي الذي منحتموني إيّاه؛ ولكن يصعب على محامية مثلي أن تفكر

وفق منطق دعائي عندما يكون مصير إنسان على المحكّ. وستدركون إذن أن ما أطالب به هو الإلغاء البسيط والصريح لتنفيذ الإعدام، أوّلاً لأن القانون يسمح به، ثم لأنني أؤمن ببراءة هذا الرجل.

-على الرغم من أنه اعترف! ردّ الحقوقي.

-كثير من الأبرياء اعترفوا في مخفر للشرطة أو في مكتب قاضي التحقيق.

-حسنا، -استأنف نائب الرئيس-، ولكن أرجوك، حدّدي الإطار العام، الرؤية التي تقوم عليها القضية ويمكننا الاستناد إليها.

بذلت مارين، لأجل هذا النهار الاستثنائي، جهدا ملحوظا في التأنّق. فقد مرّت على المزيّن وارتدت سترة سوداء محتشمة، جعلتها -برغم عدم انسجامها مع حذائها الرياضي- تحظى تقريبا بالمصداقية في مفاوضاتها. وعندما تناولت مسألة عقوبة الإعدام، أغمضت عينيها وكأنها كانت تستعيد في نفسها حججا قد نضجت طويلا:

-لا يغيب عنكم أن كثيرا من الناس -من بينهم أبرياء- قد أُعدموا منذ توحيد قانون عقوبة الإعدام.

صحّح الحقوقي الصغير ذو النظارات في تهكّم وقح:

-رغم ذلك، ألم يؤكّد قانون 11 جويلية التخلي عن عقوبة الإعدام في كامل الاتحاد؟

-أنت محقّ. وذلك ما يدقّقه هذا النص: «تلغى عقوبة الإعدام

نهائيا. وتحتفظ عديد الدول الأعضاء مع ذلك بالحق في تطبيقها في بعض الحالات.» من حسن الحظ أن الأمر لن يكون في كل الحالات! ومع ذلك تظل هناك حقيقة أنّ السيد جونسون، مثل كثيرين آخرين، هو فعليا وواقعيا محكوم عليه بالإعدام.

-لقد قتل شرطيا!

-إنه واحد من الحالات المستهدفة، فعلا... غير أنه منذ أمس الأول جاءت إشارة خارقة للعادة تكسر التسلسل المميت: سيجارة بسيطة قطعت مسار إعدام هذا الرجل. جونسون يطالب ببساطة بممارسة حق من الحقوق. نحن نطالب بالمزيد: عدالة منصفة للفقراء والإلغاء الفعلي لعقوبة الإعدام. واليوم على شركة التبغ العامة أن تقود هذه المعركة.

أعادها الحقوقي إلى أرض الواقع:

-وفيم يتمثل حسب رأيك عدم تمتع الفقراء بعدالة منصفة؟

حيال هذه النبرة اللاذعة خمّنت مارين الإجابة: «لأن محامييهم فاشلون مثل مارين باتاكي.» كادت تحمرّ من فرط الإحراج ولكنّها فضّلت تفادي السؤال بعد أن أخذت نفَسًا عميقًا. ومن حسن حظها أن الكلّ كان تائها في أفكاره الخاصة. ونائب المدير يتساءل حائرا ما إذا كان بمقدور الشركة أن تنطلق بجدية في خوض غمار معركة سياسية يُخشى معها خسارة قسم من المدخنين، فقد أثبت سبرٌ للآراء أُنجز قبل عامين حول الملامح الاجتماعية لهواة السجائر أنهم يظلّون في مجملهم أمْيَلَ قليلا إلى عقوبة الإعدام من سائر الناس. وسيكون من الأفضل استخدام قضية جونسون بتواضع مع الاستفادة من هذه

الفكرة البسيطة والقوية باعتبار «التدخين متعة أخيرة». ومن وجهة نظر أخرى إذا كانت مارين باتاكي ستجد حججا حقيقية كي تثبت براءة موكّلها، فإن ما سيعود بالنفع على شركة التبغ العامة يمكن أن ينبع من ربط مُصنِّع السجائر بعملية إنقاذ بريء. وبعد أن وضع في حسبانه كلّ الاعتبارات، تناول الكلمة ليعلن عن قراره:

-اسمعي أستاذة، لا أعتقد أن شركتنا قادرة على مجاراتك في المضيّ قدما ضد حكم الإعدام. إننا نحترم قناعاتك، ولكننا نفضّل إطلاق حملتنا لتوجيه الرأي العام نحو فكرة توافقية أكثر. وإذا تشبثت محكمة العدل العليا بحكم الإعدام فإننا سندافع عن الحق في السيجارة الأخيرة بوصفها صلة رمزية بهذه الأرض. صورة جميلة، أليس كذلك؟

التفت نحو مدير الشؤون القانونية الذي أومأ موافقا، ثم استأنف:

-المهم بالنسبة إلينا، هو أن يتمكّن المحكوم عليه من تحقيق رغبته الأخيرة. بلّغي العدالة أننا جاهزون لتوفير كل البنى التحتية، على سبيل المثال، غرفة إعدام مهيّأة للمدخّنين مؤمّنة بالكامل... ولكن إذا قررت المحكمة أن تذهب بعيدا مقرّة العزم على مراجعة المحاكمة فإننا نستطيع النظر في تقديم دعمنا لك متى ما أثبتّ براءة السيد جونسون.

ودون أن ينتظر الإجابة من لدن المحامية الغامضة التي كان يهبها فرصة العمر، التفت نائب الرئيس إلى معاونيه مدقّقا:

-أرجو أن يركّز الجميع على هذا الموقف.

إذن، ستحتفظ مارين باتاكي إلى غاية صدور قرار المحكمة

بالإمكانيات التي وُضعت تحت تصرفها من قِبل الشركة. عادت إلى سيارتها اللّيموزين وطلبت من السائق أن يقلّها إلى المركز العِقابي من أجل لقاء أخير مع ديزيري جونسون. ونظرا إلى المنعرج الذي اتخذته القضية منذ ثلاثة أيام، فقد أصبحت المحامية مقتنعةً بالحصول على حل مثير. ولكنها كانت تَحذر من تصرفات موكّلها، من طمأنينته الحمقاء وميوعته وأقواله المنفلتة.

كانت مستعدةً لإخباره بأنها ترجو إنقاذ حياته، ولم تتفاجأ حين رأته يدخل ردهة زوار السجن بمشية خاملة وهيئة رجل منشغل بالمسألة نفسها:

-إذن، سأتمكن من تدخين ذلك العَقِب؟

-سيد جونسون، لا يتعلق الأمر بسيجارة؛ إنما أريد أن أحصل لك على إعادة للمحاكمة! لقد أكّدتَ أنك لم تكن موجودا هناك ساعة وقوع الجريمة! إذن يجب عليك أن تغتنم الفرصة وتناضل.

عند سماع هذه الكلمات، دخل فتى الراستا الطويل في حالة تأمل. وكما هو شأنه خلال الجلسات بدا أنه يولي مصيره الشخصي اهتماما أقل مما يوليه لحل مسألة في المنطق. ثمّ تفحصت عيناه المحاميةَ وكأنه يودّ أن يأتي بتصويب صغير:

-أنا حقا لم أقتله؛ ولكنّ هذا الشخص كان رغم كل شيء وغدا عنصريًّا كبيرًا!

-أرجوك، ديزيري، كفّ عن تبرير جريمة القتل هذه. فهذا لم يخدمنا أثناء المحاكمة. كل الجرائم فظيعة. ولأنني أؤمن

ببراءتك سنعمل على إخراجك من هنا.

- ستكلمين القضاة؟

-نعم سأفعل ذلك الآن.

-أرجوك، اسأليهم ما إذا كان بوسعي اختيار صنف السيجارة. أحب واحدة إنجليزية من نوع بانسون حارقة و دون مصفاة!

ثم أطلق ابتسامة:

-مع قليل من الأعشاب، سيكون الأمر أفضل.

ندت من المناضلة المناهضة للميز ابتسامة حانية. لا شيء يُنتظر من هذا الفتى المسكين العاجز عن القيام بما يلزم لإنقاذ نفسه. وعلى المحامية أن تتدبر أمرها وحدها. بعد أن ودّعت جونسون، عادت إلى السيارة وطلبت من السائق أن يتوجه إلى محكمة العدل العليا فقد استُدعيت لتعرض في الرابعة مساء وجهة نظرها.

كالعادة، حازت مرافعة مارين باتاكي مستوى دون المتوسط. فرغم الفرصة التي وهبتها إياها هذه الوضعية غير المسبوقة، ورغم كل الحجج التي كانت تملكها، ورغم قناعاتها العميقة، لم تجد الكلمات لإقناع السلط القضائية بمشروعية قضيتها. فقد استمع إليها قضاة الجمهورية بتعال كأنها طالبة بصدد إجراء امتحان. لقد وجدوها مملّة ورفضوا طلبها إلغاءَ الإعدام. ولكنهم مباشرة إثر ذلك تقريبا، نسوا المحامية ودخلوا في نقاش خبراء يبدو أنه كان يستهويهم -أو على الأقل يسلّيهم- حول المسألة التي لا سابقة لها والتي طرحها ديزيري جونسون: *مسألة السيجارة الأخيرة*. ما كانت قيمة كل من

الفصل 47 والفقرة 176 ب؟ بعد بضع دقائق غاص الخبراء القدامى ذوو الأردية السوداء وياقات الهرمين[1] البيضاء، في هذا النقاش المحموم وطلبوا من المحامية الخروج في انتظار أن يتوصلوا إلى اتخاذ قرار.

امتد النقاش إلى ساعة متأخرة من اللّيل. وحيال اتساع المشكل كان القضاة يطلبون بانتظام من الحجّاب أن يأتوهم بنسخ من الأرشيف القضائي راحت تتراكم على المناضد: أصول من محاكمات مشهورة تعود إلى بدايات الجمهورية وحتى إلى الإمبراطورية الرومانية. وقد اغتنم كل واحد منهم ذلك ليثير ذكرياته الخاصة بصفته طالبا للحقوق وليذكّر بكذا تفصيل من فقه القضاء، وبكذا حالة مهمة وقعت معالجتها خلال تاريخه المهني الطويل. حتى تحوّلت السهرة برمتها إلى مناظرة في البلاغة، وفي الأثناء كانت المحامية تغفو على مقعد في غرفة الانتظار، توقظها كل ثلاثين دقيقة، المكالمات الهاتفية من لدن شركة التبغ العامة المنتظرة صدور الحكم. كان الصحافيون حوالي منتصف الليل ما يزالون محتشدين أمام القصر، عندما ظهر رئيس المحكمة محاطا بثلاثة من زملائه ارتسمت على وجوههم الحمراء المجعّدة ملامح تلاميذ المدارس، ليعلن القرار المتّخذ بأغلبية سبعة أصوات مقابل أربعة. وبعد تعداد مجموعة كاملة من أسباب الحكم، أعلن أخيرا حكمه القضائي:

-يسمح للمدان ديزيري جونسون إذن، بتحقيق رغبته الأخيرة،

---

(1) نسبة إلى جرذ أرمينيا الذي تتخذ من فروه الأبيض قطعة تزين أزياء القضاة والمحامين. (المترجم).

وهي في الحالة الراهنة، تدخين سيجارة من اختياره ستُوفَّر له من قبل المركز العقابي. وحتى لا تقع مخالفة الإجراءات المضادة للتدخين المتخذة بطريقة قانونية داخل المؤسسة، فإن على إدارة المركز أن تُعِدّ (داخل المبنى أو خارجه) فضاءً للتدخين مهيّأ تحديدا من أجل تحقيق هذه الرغبة الأخيرة دون الإضرار بصحة الطاقم العامل. وفور استهلاكه لسيجارته يتلقّى ديزيري جونسون حُقنةً مُميتةً تطبيقًا للعقوبة الصادرة ضده.

## (4)

كان سن الرشد هو أفقنا ومثلنا الأعلى. وكانت الطفولة تخضع لقواعد مضنية: فخلال هذه السنوات التي طالت أكثر مما ينبغي، ظللنا نعيش مثل السجناء الذين ينتظرون إطلاق سراحهم. وكانت الإجازات تحمل معها شعورا عابرا بالاستقلال الذاتي وإدراكا مباغتا لاتّساع العالم سرعان ما يتبدّد -فور العودة المدرسية- في فناء الفسحة الضيّق الذي تتناثر فيه الأوراق الميتة. حين كنت صغيرا، كان عليّ أن أصمت وأطيع وأعمل وأتعلم، وبالأخصّ أن أصبر، في انتظار أن أُقبَل في عالم «الكبار». في فترة المراهقة يصبح هذا الانتظار ضاغطا أكثر، قاسيا ودقيقا. كانت المراحل تتوالى: السيجارة الأولى، النقود الأولى، الموعد الغرامي الأول، القبلة الأولى... ضمن أفق ذلك اليوم الذي تتخذ فيه الحياة الحقيقية اسم البلوغ.

مثل جميع الصبيان كانت عيني توّاقة إلى هذه الجنّة حيث الموانع على وشك أن تتلاشى وحيث يصبح من الممكن أن نفعل وأن نختار دون طلب الإذن (على الأقل خلال الأعوام القصيرة التي تسبق الزواج). كانت بعض الحركات التي لا أهمية لها تبدو لنا رمزا للنضج: قيادة سيارة، دخول ملهى ليلي، شراء بلاي بوي من بائع الصحف. ولكنّ أول هذه الحقوق كان التدخين بلا جدال...

أمّا مرض السرطان فقد كان آخر اهتماماتنا. بل وعلى النقيض من ذلك، فقد تعلمنا من السينما والدعاية أن ننظر إلى هذه العادة على أنها عنوان حرية. إشعال سيجارة، مسكها، نفث الدخان: هذه اللعبة النارية العجيبة كانت تمنح من يمارسها مظهرا متطورا، أنيقا، عصريّا. السيجارة بما هي شيء غير مفيد وجمالي تقريبا، تميّز الإنسان من الحيوان. وقد كنا نريد عبر هذه الوسيلة وبعض الوسائل غيرها، أن نصبح كبارا في أسرع وقت ممكن.

كيف لي أن أتصوّر أنه بعد مرور ثلاثين عاما، سيتمثل القسم الكارثي من حياتي في البحث عن أماكن خفيّة -تماما مثل تلميذ الإعدادي ابن الثالثة عشرة- لأدخن سيجارتي، وأني سأقفل على نفسي وراء باب موصد في قاعة جيّدة التهوئة بما يكفي كيلا أُفجأ بالجرم المشهود؟ كيف لي أن أتخيل أن هذه الحرّية التي لم نكد نكتسبها، ستنهار بهذه السرعة تحت ضغط إجراءات صارمة اُتّخِذت لحمايتي الشخصية؟ كيف لي أن أتصوّر بعد هذه السنوات من الحرية النسبية، أن تترجَم حياتي الاجتماعية بعودة إلى الطفولة وممنوعاتها بينما يجد الأطفال أنفسهم منعّمين بحقوق هي دوما في ازدياد.

لا أعرف حقا على وجه الدقة أصل كل هذا، ولكن في يوم من الأيام بدأ البالغون يتوقون إلى الاقتراب من الطفولة. وفجأة، ما عاد شيء أهم عندهم من الإنصات إلى أصاغر الأطفال ومرافقتهم ومسكهم من الأيدي وبناء عالم ملائم تماما لاحتياجاتهم، وملاقاة الطفولة التي تتخفىّ فيهم. انقلب الحلم رأسا على عقب ونظر الكبار إلى الشبيبة على أنهم الأنموذج المثالي الذي لن يكونوه قط:

العفوية والنقاء والبشرة الطريّة والصحة الفَتِيّة. في الحصص الأولى من تلفزيون الواقع كان المترشّحون يتعلمون ألاّ يظهروا البتة بمظهر الأشخاص الناضجين والمسؤولين؛ بل كانوا يجدون أنفسهم طوعا في أنواع من المدارس لتعلّم الغناء والرقص والنوم في المهاجع والتشاجر بسبب الحماقات ثم يتسامحون علانية بقبلة. وإثر تخطّيهم حالة الهوس بالسخافة التي تصيب البالغين، كانوا يعرضون أنفسهم في بساطتهم على جمهور من النظّارة هو نفسه مؤلف أساسا من الصبيان سادة سوق الدعاية.

أصبحت الطفولة حلم المجتمع. هذا الكمال الذي يجعل الحياة أقلّ شقاء، تماما مثلما كنا نتحمّل الطفولة ونحن نحلم بسن الرشد...

ظلت أفكار من هذا القبيل تجول في ذهني عصر هذا اليوم في دورة مياه الطابق الرابع من مبنى الإدارة البلدية حيث أقفلت على نفسي الباب لأدخن سيجارة مارلبورو أحمر(«قطران: 0.5مغ، نيكوتين: 0.04مغ، أول أوكسيد الكربون: 0.5مغ»). خافضا بنطالي، أُلهب سيجارتي بتلذّذ وأسحب الدّخان الساخن إلى عمق قصبات رئتيّ قبل أن أزفره. في الأسبوع الماضي نجحت في فتح هذه النافذة المسدودة بفضل مفك البراغي المخبإ في جيبي. وقد تطلّب منّي هذا العمل أشهرا عديدة بمعدّل عشر دقائق في اليوم: كان يجب عليّ أن أفكّ كل برغيّ، ثم أكشط طبقة صمغ الخشب في كل سنتيمتر حتى ينتهي الأمر بالدعامة إلى الرضوخ.

على المدخِّن المتسلّل أن يختار مَحلاًّ جيّد التهوئة: فعلى الرغم من أنّ دورات المياه الصغيرة هذه، لا تحتوي على مجسّات، إلا أنه يكفي

أن يعبر الدخان الباب حتّى تنطلق في الرواق صفّارة الإنذار. لذا أنا آخذ الوقت الكافي للقيام بالتهوئة وأغلق النافذة بعناية فائقة قبل الخروج.

إلى غاية السنة الماضية، كان بعض فضاءات التدخين لا يزال مهيّأ داخل حرم الحيّ الإداري. الأشخاص الذين «يموتون مبكرا» يجدون أنفسهم فيها وكأنهم مبعدون، بعد أن يكونوا قد واجهوا نظرة الاحتقار الموجهة إليهم من زملائهم. ولكن منذ أن امتدت روضة الأطفال إلى جميع المقرات، ومنذ أن غدا الغلمان الضيوفَ المبجلين في هذه الدار، لم يعد هناك مجال للتغاضي عن أدنى خطر اختناق. فبصراحة نحن الكهول نستطيع، في نهاية المطاف، أن «نلحق الضّرر بصحة مَن حولنا»؛ فلم نكن سوى حفنة من مبرّزي الآداب والمجازين في الحقوق وأرباب الأسر والموظفين من أصحاب الضمائر الحيّة... أما أن يتعرّض العيال لحظةً واحدة لدخان السجائر فهذا مما لا سبيل إليه! حظر عام! لا فائدة في الإلحاح! بل إنه على المدخِّنين أن يغتنموا هذه الفرصة لإصلاح عيوبهم ومعالجة إدمانهم.

لم تلطّف هذه التدابير -وسيُفهم هذا لاحقا- مشاعري تجاه الطفولة. ولكن كان من نتائجها جعلي أرتدّ نحو متع المراهقة. وأبعدَ مِن أن أكون قد أصلحت من إدماني، رحت أدخّن سيجارتي في ابتهاج سرّي وصبياني في هذا الفضاء ذي المترين مربعا أو يكاد وأنا أعيد قراءة الملحوظة: «التدخين أثناء فترة الحمل يضرّ بصحة طفلك.»

مِثل نَشْء سوء قذر أُلهب الجمرة وألعن القانون. وبابتسامة

ماكرة، أسمع في الممرّ هؤلاء الأحداث وهم يتناعبون. لن يمنعوني من أن أحيا على هواي. وإذ أفكر في النظام الداخلي الجديد الذي يعِد «بملاحقات» لكل «المخالفين»، تتحوّل ابتسامتي إلى تكشيرة شرّيرة. في ما مضى كان يُكتفى بتوجيه إنذار لكلّ من يدخّن في الفضاء المعدّ لغير المدخّنين، أما اليوم فيقع قمعه. ولكنّ تدخين التبغ يدفئ قصبات رئتيّ ويجعلني أشعر بفرح خسيس وأنا أتذكر سحنة المخمور في وجه العمدة عندما كان يعلن عن هذه الإجراءات الصحّية! هو دائما الأول في قائمة أصدقاء الطفولة والأمهات والجدّات! يعتقد أنه قد حوّل الحيّ الإداري إلى منطقة محميّة؛ لن يتمكّن منّي، وأنفث دخاني بطيئا في وجهه.

التقيته في بداية فترة ما بعد الظهر، خلال التقييم التقني الشهري حول «جودة الحياة». هنّأني علنًا على تقريري: دراسة على درجة من الإتقان، مخصصة لتسليط الضوء على الأضرار المتناقضة الناجمة عن حماية البيئة! لم يفكّر أحد في هذه الظاهرة المدهشة: إن القيود المفروضة على مسالك المرور في كامل المدينة لم تفعل شيئا سوى مُفاقمة الاكتظاظ والتلوث، وجَعْلِ المواطنين -الذين نريد حمايتهم- أوّلَ الضحايا. ولقد ادّعت الصحافة في مجاملتها للفريق البلدي على مدى شهور، أن السيارات كانت تجري بسهولة أكبر، وأن الهواء يصفو وأن كل فرد كان أكثر سعادة. أما اليوم فإن إحصائيات مقوَّمة بالأرقام تكذّب هذه الحصيلة النظرية. كان من المؤمَّل تثبيط همم سائقي السيّارات بواسطة إجراءات تحريضية؛ فلم يستسلموا. بالعكس، لقد تسببت إقامة «ممرات المواطنين» في صعود

سهمي لنسب الكبريت و ثاني أوكسيد الكربون. حتى فصل الصيف الذي كان هادئا ونقيّا تحوّل إلى كابوس حين تمت تهيئة كامل مركز المدينة ليغدو ممشى للمترجلين يفاقم الازدحام المروري في الأحياء المجاورة. عبثًا يردّدون أنّ *كلّ شيء أفضل*، فقد كان كلّ واحد يعاني من هذا الوضع. وذلك هو خطر سياسة تنشد إعجاب أصدقاء الطبيعة دون أن تعارض فعليا زبائن سائقي عربات الأجرة.

بعد أن قال العمدة كل كلمة خير كان يعتقدها حول ما قمت به من تحليل، وحتى بعد أن أبدى أسفه لكون سياسة «العيش الأفضل معا» يمكن أن تخلّف آثارا سلبية، رجا أن يظل تقريري سريا. ثم انطلق في نقد لاذع ضد بعض وسائل الإعلام التي تنتظر، حسب رأيه، أول فرصة سانحة لتعيب سياسته. والظاهر للعيان أن تقريري قد أزعجه بإثارته تصور حدوث تغيير للرأي العام، وإمكانية إلقاء نظرة سلبية على سياساته، والتهديد الخبيث الذي تمثله وجهة نظر تهدف إلى نشر ظلال قاتمة على أفعاله -بعد حفلات التصفيق الممجّدة لهذا الرجل الذي يقوده «هوس الأمانة والمصلحة العامة»-. هل يشكّ هذا الأحمق ذو المظهر الملائكي، أني أذهب كل يوم لأتوارى عن الأنظار في مراحيضه كي ألوّث فيها بحُريّةٍ دمي وشعب الرئة لديّ، كما يلوِّث هو عبر الخداع مواطني هذه المدينة؟

عندما خرجنا من الاجتماع التقني، كان عشرون طفلا يرقصون رقصة الحلقة أمام قاعة المحاضرات. كل مساء يحطّون رحالهم قادمين من المدرسة في انتظار أن يأتي آباؤهم لأخذهم. رجانا الحاجب أن ننتظر حتى ينهوا رقصتهم. كانت المنشّطة تدندن بأغنية قروية تُرفقها

بنقر على الدّف. والأطفال -وأعمارهم بين الخامسة والسادسة- يدورون متشابكي الأيدي وهم يخطون خطوات جانبية. وفي الأثناء تسمّر جلُّ مساعدي العمدة (الذي اختفى من بابه الخاص) مفتونين بعرض البراءة والنقاوة هذا. وكان كل هؤلاء الأربعينيين الذين يضعون نظارات، وهؤلاء الخمسينيين الصلع الجماجم، وهؤلاء الموظفين بأربطة العنق يفرطون في غبطتهم العارمة، وكأن كلاّ منهم يريد إقناع نفسه بأن عالما أفضل ينشأ، وبأن لدينا الكثير لتعلّمِه من الصغار، وأن الوقت قد حان لنفارق منزلتنا باعتبارنا راشدين من أجل أن نجد في الشباب معنى للحياة:

- هل رأيت هذه الفتاة الصغيرة، كم تلتمع عيناها ذكاء؟

- وهذا الكوري الصغير،انظر إلى محيّاه الضاحك!

رجّع صوتي صداه في نبرة كئيبة:

- عصابة العجائز الغلاميين[1]!

تقدمت في الممر وأنا أدفع جماعة الأطفال تحت أنظار الحاجب الحانق، ثم التفتّ مضيفا بلهجة من جليد:

- ليُلقَ بهؤلاء الصبية بعيدا وليتركونا نعمل!

نظر زملائي إليّ مذعورين. المتسامحون أكثر افترضوا أني أمرّ بوقت عصيب، أو مشكلة زوجية. والأكثر فطنة فكّروا في كوني قد تحمّلت بامتعاض قرار العمدة بقبر التقرير الذي أعددته. أما الأطفال أولاء، فكانوا غير عابئين؛ يواصلون الرقص على إيقاع بدأ يتسارع لينتهي في

(1) محاولة لتعريب «pédophiles» بمعنى «يطلبون اللذة الجسدية مع الأطفال». (المترجم).

غمار الجلبة. وبعد قليل سمعتهم يتفرّقون وأنا أدخل دورة المياه مُقرًّا العزم على الانتقام من ظروف العمل المفروضة علينا. أغلقت الباب ورائي. دفعت القفل وخفضت بنطالي (إذا كان هناك من ينتظر دوره وراء الباب فمن الأفضل إسماعه حفيف الملابس، الأمر الذي يمنح الإقامة في هذا المكان أصالة أكثر). أدرتُ -مستعينًا بمفك البراغي الخاصّ بي-، آخر برغي صغير يبقي النافذة مغلقة وفتحتها على جادة النصر حيث تدبّ السيارات في انسداد زحمة سير هائل. أخرجت إذن، علبة السجائر، وأمسكت بقضيب السُّم، ثم وضعت المصفاة بين شفتيّ واقتربت من تيار الهواء البارد كي أقدح الولاّعة وأشعل سيجارتي.

* * *

ثمة ظروف أخرى تفسر توتري؛ إنها تعود إلى نهاية الأسبوع الماضي وإلى دعوة أخي لطيفة الذي كان يريد أن يطلعنا على بيته الريفي. اقتراح لطيف، أخطأنا بقبوله، قاطعين على هذا النحو مع أسلوب حياتنا الأناني أنانية أبيقورية للتضحية في سبيل تقارب عائلي. حجة أخرى كانت تدفع نحو هذه الرحلة الصغيرة: اكتشاف منطقة تنتشر فيها الأودية ويشقّها قنال قديم. كل شيء يفضي إلى فكرة القيام بجولات وسط الكروم قبل أن نتمدد بحنان في المروج. وقد استبعدنا الحجج السلبية؛ في المقام الأول أبناء أخي صاحبتي: ثلاثة متبرِّزين[1] حقراء، يمارسون منذ ولادتهم سلطة ديكتاتورية

(1) تبرّز: كناية عن التغوّط. أصله: خرج إلى بَراز من الأرض للحاجة. استخدم المؤلف لفظا يدل على الأطفال chiards مأخوذًا من فعل chier أي تغوّط. وقد رسمه على الطريقة العامية:schiarre رسما لا وجود له في المعاجم الفرنسية. (المترجم).

على أبويهم. أما صهري وزوجته فكانا يحتفظان مع ذلك بوسيلة أخرى كي يفسدا علينا رحلتنا الرعوية إفسادا تاما.

بدأ كل شيء يوم السبت صباحا. كنا قد عدنا في مساء اليوم السابق متأخرَيْن، وأمضينا ليلة لذيذة في غرفة تضوع بأريج التّنوب. كانت لطيفة وقد أيقظتها العصافير، قد نزلت عند الساعة التاسعة لتناول القهوة. وبعد ذلك بقليل جلست أمام المدفأة لتشعل سيجارة. وبمجرد انقداح الولاعة خرجت زوجة أخيها من المطبخ وهي تشرح في هدوء:

-اعذريني نحن لا ندخّن في المنزل...

يبدو أنّ هذه الـ«نحن» تتضمّن الضيوف أيضًا. أفشت هذا القرار بنبرة ضيق لا تريد أن تكون متسلطة، ولكنّها لا تسمح بأي نقاش. وبما أنّها أدركت مع ذلك أن هذا المنع سيكون قبيحا منها في حق صاحبتي فقد أضافت على الفور:

-يمكنك التخلي عن التدخين فترةً، فذلك لن يضرّك.

بدت وكأنّها تتصرف من أجل مصلحتنا. وإزاء مزاج لطيفة المرتبك ظننت أنه من الضروري التدقيق:

-حقا، إنّ ذلك يضايقني لأجل صحة الصغار؛ ثم هو ليس مثلا جيدا.

أنهت لطيفة السيجارة وحيدة تحت المظلة في برد الحديقة وهي منزعجةٌ دون أن تجرؤ على مواجهة أسرتها، بينما كنت أهزأ قبالة صهري:

-أنتما تذكّرانني بالشيوعيين القدامى. إذ يبدو أنّ السجائر العديدة التي دخنتماها فيما مضى تجعلكما غير متسامحين!

-قطعا لا! ليكن في علمك أن هذه الرائحة تزعجنا، فعلا! أنا آسف من أجلكما. لكنها القاعدة الصغيرة الوحيدة في هذا البيت.

أنشأت هذه «القاعدة الصغيرة الوحيدة» منذ الصباح جوّا يبعث على الأسى... طبعا، كان حرياً بي الاعتراف لهما بأنهما على صواب، والتسليم بأن هذا المنع كان فرصة للإقلاع عن التدخين، علاوة على ذلك أنا لا أدخّن كثيرًا، فالجهد لم يكن بذاك العناء. عوض أن أفعل هذا، ركّزت بفضول سقيم على هوس هؤلاء الأشخاص الصحّي. فكانت درجة الضّيق المنجرّة عن التدخين عند زوجة صهري تتجاوز كل ما كنت أتخيّله.

ما بعد الظهر صعدت أنا ولطيفة إلى غرفتنا. كان صوت المذياع يغطّي انزلاقاتنا الشّهوانية تحت النافذة المفتوحة على مصراعيها. إثر ممارسة الحب، كثيرا ما يعنّ لي أن ألهب واحدة (ابتذال فحولة قديم هو على الأرجح من مخلّفات الروايات البوليسية زمن المراهقة)؛ خطّطت لكل شيء وجلبت معي خلسةً صحن فنجان لاستخدامه منفضة سجائر. كنت أقترب من النافذة في بُرْنس الحمّام كي أبدّد رائحة الدّخان، وعندما مرّ في الحديقة أصغر أبناء الأخت؛ رفع رأسه ليراقبني وأنا بصدد صنع حلقات من الدخان. فوجّهت إليه بيدي إشارة ودّية ولكنّه لحق فورا بأمه في الصالة ليروي ما كان يشاهده لتوّه... فشرعتْ بعد مرور خمس دقائق، تطلق في المطبخ -الواقع

تماما تحت الغرفة- سلسلة سعال عصبي كالمنزعجة من رائحة التبغ.

طبقا لقوانين الفيزياء، ليس في مقدور الدخان أن ينزل إلى الطابق السفلي؛ تبعا لذلك، فالمقصود إذن، إشارةٌ مفادها أنّ هذه الفرقعات المَرضيّة كانت موجّهة إلينا.

بقينا خائفين وصامتين، مختبئين كراكبين متسللين. وبعد فترة من الصمت، انتهى الأمر بزوجة صهري إلى صعود الدّرج والمرور عدة مرّات أمام بابنا وهي تسعل بقوة أكبر. وبعد نصف ساعة حين كنّا بصدد الالتقاء بالعائلة للذهاب في نزهة، برزت من جديد وعلى وجهها علامات الغضب:

-أنا فعلاً أطلب منكما ألاّ تدخّنا داخل الغرف.

ولتعضد موقفها، بسطت تحت ناظرينا صحن الفنجان المذنب مع عقبيْ سيجارتينا الأسودين المسحوقين جيّدا. ويبدو أنها شعرت بالاشمئزاز فصرخت: «يا للفظاعة!»، قبل أن تُعدِم الأدلّة في حاوية القمامة. فنظر الأطفال إلينا بدورهم مكرّرين:

-التدخين شيء مقرف.

-التدخين يسبّب السّرطان.

لقد أصبحنا نحن أطفالَ هذه العائلة برمتها. وكدتُ أنتهي وأنا مسكون بالإهانة إلى أنّ العودة إلى البيت أفضل شيء في مثل هذه الظروف؛ ولكنّي شعرت بضغطة خفيفة على أصابعي تدعوني عبرها صاحبتي إلى البقاء هادئا وتلحّ على تفادي الخصومة إلى حين العودة.

كان بإمكاننا إنقاذ نهاية الأسبوع المهترئة هذه، بواسطة محادثات

شيّقة. ولكن مع الأسف أصبح من المستحيل، خلال هذين اليومين، تبادل كلمة واحدة بين راشدين، لأنّ الزوجين كانا يُجلسان أطفالهما الثلاثة إلى صدر المائدة عند كلّ وجبة، للتفرقة بين الكبار بشكل يمنح الأطفال كامل الهيمنة على الحديث، من المفتّحات إلى التّحلية. فبمجرّد أن ينطلق موضوع مّا، يقاطعنا الابن الأكبر (عشر سنوات) فورًا، ويروي ما قام به في نادي الخيل؛ أو يخبر بأنه مغتاظ لأن أحد أقرانه يملك عارضة ألعاب فيديو أفضل من عارضة ألعابه؛ ثم يعنّ للأخت الصغيرة أن تتحدّث عن صديقتها جينيفير. ويبدو الأبوان شغوفين بحديثهما فيدعوانهما إلى مواصلة عرض التفاصيل. وفي أثناء ذلك، كان الأخ الأصغر يُعْوِل وأنفُه مندسٌّ في هريسته[1]. وفي أوقات أخرى، كان صهري يتّخذ ملامح طلقة ويطلق محادثة وكأنّ هذه الغوغاء لم تكن تزعج أحدا... وحين، يهرول الأطفال إلى غرفهم تاركين إيّانا نشرع في وضع الخطوط العريضة لحوار بين بالغين، تقطع زوجة أخي لطيفة علينا تواصلنا فجأة، لأنّ ابنتها انخرطت في الصراخ ولابد من التدخل. فنظلّ جالسيْن إلى المائدة مشوّشيْن رفقة الصغير الأخير وأبيه وهو يواصل إطعامه.

كانت هذه الذُّرّية تُبقي عيونها مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل. وحتى حين ركبنا القطار مساء الأحد برفقتهم للعودة إلى البيت ونحن في غاية الإرهاق، لم يكفّ العفاريت الثلاثة على امتداد هذه السفرة الطويلة جدّا عن الركض من طرف العربة إلى طرفها الآخر. كانوا ينحدرون في الممرّ المركزي مصطدمين بالراكبين، ويطلقون صيحات

(1) ما يهرس من الباطاطا أو الخضر أو الغلال. (المترجم).

الفرح وزعقات الهنود الحمر، البنت في أثر الولد، والصغير في حفّاظة الأطفال يخطو خلفهما متعثرا. ليتكرّر ذلك في الاتجاه الآخر من جديد وبلا كلل. في البداية ظلّ الوالدان يتصرّفان وكأنهما الوحيدان اللّذان لا يسمعان شيئا. كانا وهما غارقان في كتابيهما اللّذين لا يقرآنهما حقّا، يُقدّران أنه من العبث التدخّل بممارسة السلطة على أطفال صغار السن (نظرا إلى الطريقة التي يربّيانهم وفقها، فإن السلطة لم يعد لها أيّ أثر). كنت أنظر محرجا إلى الركّاب الآخرين لأعتذر على قلة حيلتي. وأخيرًا، حين فهما أن أطفالهما يزعجون الجميع، قرّر الأب والأم التصرّف -وكلّ منهما يشير إلى الآخر ليورّطه في الأمر-. كانا يلطّفان نبرات الصوت أقصى ما يمكن، ويتوسّلان إلى الصغار كي يسكنوا ويجلسوا ويلعبوا لعبة هادئة. فيمتثل الأطفال امتثالا مبهما، ثم يتلوّون بين أيدي والديهم وهم يصيحون صياحا حادّا منكرا، وينزلقون على الأرض ثم ينطلقون راكضين في الممرّ من جديد- البنت تلاحق الولد وكلاهما مُلاحَق من الصغير في حفّاظته. كنت وأنا منجذب إلى هذا العرض ألحظ في اضطرابِ الصِبْية شيئًا مّا عدوانيًا يبدو أنه كان موجها إلينا صراحة.

* * *

وحيدًا. أخيرًا أنا وحيدٌ في دورة مياه الطابق الثاني أتذوّق سيجارتي تذوّقا مَلكيّا وبنطالي إلى أسفل. وبمجرّد سحب الدخان يتسرّب من النافذة المفتوحة على مصراعيها. أفترض أنّ الأمور ليست على هذا القدر من السوء. كنت وأنا أتوجّه هذا الصباح إلى الحيّ الإداري، أشعر بطاقة بداية الأسبوع المبهجة. انتهى آخِر الأسبوع ولن أرى

أبناء أخي لطيفة ثانية قبل مرور فترة طويلة جدا. بيتي الصغير المزهر وحبّي الحنون وحتى طرقات المدينة الآسنة، كل هذا المعيش اليومي يبدو لي مفضّلا على حياة العائلة. الممنوعات موجودة، ولكن يوجد أيضا الابتكار البشري، ولا أحد يقدر على منعي من تدخين هذه السيجارة في مأمن وراء باب موصد. المعركة ليست متكافئة، ولكني لا أزال أجيد القتال: منذ قليل وأنا ألج المصعد نجحت في تجاوز ثلاثة صبية ثم أغلقت في وجوههم الباب. كانت القمرة بصدد الارتفاع بينما هم يطبّلون في الأسفل، ساخطين من وجوب انتظار خمس دقائق حتى يتمكّنوا من الصعود إلى الحضانة.

باختصار أنا راشد وأعيش كما يحلو لي. يكفي أن أحتفظ بهدوئي وأنجز مهمتي بدقّة -حتّى لو أثرت بضع مناقشات مع رؤسائي كما فعلت منذ قليل في خصوص حركة السير-. إن كان العمدة ذكيّا فسيكافئني على مثل هذه المبادرات، فصاحب السلطة يحتاج إلى أن يزوّد بالمعلومة. أسحب نفَس سيجارة جديدا وأعتبر نفسي مميزا في صنفي بما يكفي. أستمتع وأنا جالس على مقعد المرحاض، بمذاق الدخان، فتزيد هذه المتعة في إثارة ما لديّ من إعجاب بمؤهّلاتي الذهنية، وبفن إثارة الجدل، في الوقت الذي يكتفي فيه زملائي بالموافقات الراضية.

يستقرّ بنطالي الرمادي على الأرض مع الحزام المفكوك. وأنا هكذا، في سروالي الداخلي ومرفقايَ على ركبتيّ وسيجارتي بين أصابعي، سأبدو سخيفا لكلّ من لا يقدّر حجم تأثيري في تنظيم هذه المدينة. أسحب نفَسًا آخر وأنفُثه صوب النافذة.

في هذه اللحظة بالضبط، يدور مقبض الباب ربع دورة. وبكل ما لديّ من تعال أقدّر بازدراء أنّ هذا الدخيل عليه أن ينتظر حتى أُنهي. وبحسّ ضاغط من الاستفزاز أدخّن سيجارتي من جديد... ولكن، في اللحظة الموالية، وأنا مغمور بالدهشة، أرى الباب ينفرج. الحركة على درجة من الاستحياء أحتاج معها إلى وقت كي أدرك أني لم أسحب القفل جيدا. ومأخوذا بالسرعة، أرى يدا صغيرة تبرز ومن بعدها المحيّا الذاهل لصبيّة في سن الخامسة تضع نظارات وتنظر إليّ وأنا في غيمتي الدخانية. أقدّر، وقد وقعتُ في الفخ وضُبطت متلبّسًا، أنها ليست سوى طفلة، وأنه لا ينبغي لي أن أترك نفسي عرضة للإفحام. قلت في نبرة غيظ:

-أُخرجي من هنا حالا! ترين بوضوح أنّ المكان مشغول!

وعوض الذهاب في حال سبيلها، تبدو الصبيّة مفتونةً بالمشهد. تتابع النظر إليّ، ثم تعلن عن الملاحظة الوحيدة التي يقدر عليها دماغها المسكين:

-لماذا أنزلت بنطالك ولم تنزل سروالك الداخلي؟

-أطلب منك الخروج!

تصرّ بصوتها الرهيف:

-تعرف، لا يحق لأحد التدخين هنا. وذلك لأجل صحّة الأطفال!

هذا الضمان الجاهز للتلاوة منذ نعومة أظفارها، هذا القانون الغبيّ الذي يحميها يخرجني عن طوري، فأرغب في صفعها صفعتين، ولكني أخشى أن يقع التفطن إليّ. فجأة ينتابني القلق لرائحة الدخان

التي بدأت تتسرّب الآن من الباب المنفرج. أنهض بحركة واحدة وأرمي السيجارة من النافذة وهي لا تزال مشتعلة، ثم أتقدم كما اتّفق بسروالي الداخلي والبنطال فوق الحذاء آمرًا الصبيّة:

-اُغربي عن وجهي أيتها الحمقاء!

هذه المرّة أصبتُ الموضع المناسب.يحمرّ وجهها الشبيه بوجه القزم، وتظهر بضع دمعات تحت نظاراتها، بينما أدفع بغضب الباب وأدير القفل من جديد قبل إعادة ترتيب المكان. أفتح النافذة وأغلقها عدة مرات لتغيير الهواء، ثم أخرج مفك البراغي وأثبّت إطارها من جديد بإقحام البُرغي السّري، أرشّ شيئا من مزيل الروائح «بريز مارين»، أرفع بنطالي وأشدّ طرادة الماء كمن يريد أن يثبت فعلا أنه استعمل دورة المياه. أخيرا أشدّ حزامي وأخرج من مراحيض الطابق الثاني مثل أي مستعمل للمكان... الصغيرة مرتعبة ولن تقول شيئا. ألمحها في الممرّ في مكان أبعد قليلا تغمغم في تذمّر وهي تستند إلى الحائط، وكأن شتيمتي جرحت مشاعرها. وكي أدعّم الضغط النفسي أمرّ بجانبها وأنا أكرّر في تؤدة ولكن بشدّة:

-أيّتها الحمقاء!

أفعل ذلك لجعلها تغلق فمها نهائيا. في المساء عند العودة إلى المنزل، أروي ما فعلت للطيفة فتكتفي بالابتسام. تستمع إليّ وأنا أتّقد حماسة بما أنني غامرتُ مغامرةً جنونية وعرّضت نفسي لخطر كبير. تشهد نبرة كلامي على مناخ القلق والارتياب السائد في الحيّ الإداري. وفي نهاية المطاف تتوصّل صاحبتي إلى إدراك أنّ هذه الطّرفة الصغيرة تشغلني سرًّا وكأنّ تهديدا يثقل عليّ. ولتعيدني إلى

الرّشد تصيح فيّ:

-مهما يكن من أمر ليس عليك أن تغتمّ لأن طفلة صغيرة عمرها خمس سنوات رأتك بصدد التدخين في دورة المياه!

معها حق. أنفجر ضاحكا قبل أن أدفع قدميّ تحت المائدة لأتذوّق سلطة محار «سان جاك». ولن يطفو قلقي ثانية على السطح إلا في آخر السهرة، عندما تهمس إليّ لطيفة وأنا في ما يشبه النوم:

-عزيزي هذا سيفاجئك، ولكن... أعتقد أنه حان الوقت ليكون لنا طفل.

-يكون ماذا؟

-طفل، لنا نحن الاثنين.

-ألا تعتقدين عزيزتي، أنّ هناك ما يكفي من الأطفال؟

-أنا امرأة، افهمني!

-ولكنّنا سبق وتعاهدنا...

العفاريت في كل مكان. تتسلّل من تحت الأبواب وتصل إلى أفكار لطيفة التي تغطّ في نومها الآن! أشعر بالتوتّر وبالعجز عن النوم فأُشعل المصباح المحاذي للسرير وأمسك بصحيفة *تلغراف ليبرال* التي لم أجد الوقت لقراءتها هذا الصباح. في «الصفحة الأولى» يبرز خبر الأسبوع: «هذا قرار محكمة العدل العليا التي سمحت أخيرا لديزيري جونسون بأن يدخّن سيجارته الأخيرة قبل تنفيذ الإعدام». يسرّني الخبر؛ ويُعيد بصيصٌ من الأمل همومي إلى الحجم المعقول باعتباري مُدخّنًا متسلّلاً.

## (5)

يتأتّى الخطر الحقيقي من أوقات النشوة حين لا أعود خائفا. فبوصفي شخصا خجولا خجلاً طبيعيا، وضعيف الثقة في النفس، فقد تعوّدت أن أتقدّم حذرا نحو انتصارات متواضعة. ولكن في لحظة الامتلاء، حين أرفع رأسي بفخر، لا تكون المهزلة الكامنة في الظل بعيدة جدا عن اجتياحي ثانية. لقد لاحظت ذلك مائة مرّة. عليّ الحذر من كل نوبة ثقة، من كل شعور بالانتصار، ومقاومة هذه الأصوات المتسلّلة التي تكرّر على مسامعي أن أكفّ عن لعب دور الصغير، المرتاب، المتواضع، الخجول. إنها تريد أن تقنعني بأن كلّ شيء ممكن، تريد أن تخدّرني بعطرها المسموم. أتقدّم بفخر على طريق المجد عازما على نسيان العقبات التافهة، فإذا بوعاء من القذارة يسقط على رأسي. كنت صباح هذا الثلاثاء قد استعدت سكينتي وأنا أتّجه إلى الحيّ الإداري متخلّصا من هموم البارحة. ماذا يعني أن تُفاجئني بُنيّة والسيجارة بين شفتيّ؟ هل سأنحدر لأغرق في جنون الارتياب؟ أنا الذي كنت أقدّم للإدارة البلدية مساهمة ثمينة جدًّا؟ لقد كسبت لتوّي بضع نقاط في التراتبية الداخلية بعد أن قدّمت للعمدة بذكاء ما كشفت من تناقض صُلب سياسته الخاصة. حتى انزعاجه أثبت ذلك: بدأ يفهم أنّه يحتاج إليّ. لطيفة أيضا كرّرت عليّ

ذلك هذا الصباح خلال الإفطار: يجب أن أكفّ عن القلق بلا داع؛ فقد لقّنتُ في الوقت المناسب درسًا لمدّعية شقيّة كانت تتظاهر بدفع باب دورة المياه، فيما كنت منشغلا بالتدخين والتفكير في هدوء.

بدأت المتاعب في نهاية الفترة الصباحية، بينما كنت أنتخب قصاصات جرائد محفوظة منذ عدة أشهر: سلسلة كاملة من المقالات القصيرة، والأعمدة الإخبارية والأخبار الطبّية الموجزة المعلِنة عن تزايد الأمراض التنفسية في مدينتنا، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. فلم يحدث مُطلقًا أن وقع الربط بين هذه الوقائع وبين إجراءات تقييد الجولان وما تحدثه من ازدحام. وكان الإعلام يريد بأيّ ثمن أن ينظر إلى العمدة على أنه راسخ النجاح -بما أنه تزوّج امرأة سوداء، وتبنّى أطفالا من الجنس الأصفر وخاض مسيرة مهنية يساريّة قبل أن يستحوذ على البلدية بمساندة من رجال أعمال في مجال الشوبيز[1]-. كان، إذن، كل قرار من قراراته يبدو مثمرا. فقد جلبت «ممرّات المواطنين» إلى المدينة «نفحة من هواء نقيّ». وهكذا أصبحت الصحف تكتفي بالتهليل -مع الإشارة في الوقت نفسه في صفحات أخرى إلى تزايد الأمراض التنفسية تزايدًا غريبًا-.

قرّرتُ، وأنا في ذروة التحمّس لمعلوماتي الخاصة الدقيقة، أن أقدّم دراستي التحليلية مجدّدا إلى مكتب العمدة مع مزيد الإلحاح على: وجوب توقع انقلاب للرأي العام والبدء في تحوّل حاسم والتفكير في وسيلة لتنظيم حركة السير دون مضاعفة زحمة المرور. كنت بصدد وضع ملخّص لحججي، حين رنّ جرس الهاتف... تلقت مساعدتي

(1) صناعة الاستعراض والترفيه. (المترجم).

للتو مكالمة من مديرة الموارد البشرية سألتها خلالها عن إمكان المرور لمقابلتها على الساعة الثالثة والنصف. لم تحدّد موضوع هذا اللقاء لكنّني توقّعتُ بحدسي خبرًا جيّدًا. ترقية؟ علاوة؟ منحة جدارة متعلقة بتدخلاتي أثناء الاجتماعات في الآونة الأخيرة؟ خطوة إضافية ستجعلني أقترب من المرتبة الحلم المتمثلة في مستشار خاص، مثقف فوق الرتبة معفى من التقيّد بالوقت ويتقاضى أجرا أعلى ليتأمل بحرّية في الموضوعات التي تهمّه. أكّدت الموعد وفي تمام الثالثة وخمس وعشرين دقيقة صعدت إلى الطابق الخامس.

للوصول إلى مكتب المديرة لا بدّ من المرور عبر الحجرة التي كانت تُستخدم فيما مضى لمآدب الغداء الرسمية، قاعة طعام واسعة حيث يمكن التمتع بمشاهدة هذه المجموعة الرائعة من الجداريات القديمة التي تعيد كتابة سطور تاريخ مدينتنا: حلول الأسطول الإنجليزي، ثورة 1820، زيارة قيصر روسيا... أحب هذه الرسوم الزيتية الهائلة العائدة إلى نهاية القرن 19 وتقنياتها التشكيلية البسيطة والمذهلة بما فيها من كمال التفاصيل، وثنايا الملابس، ولعبة الضوء على الحصون، وتجمّعات الأسواق الشعبية من منظور طبعاني[1]... من هنا فصاعدا، وسط هذه القاعة المفرغة من جميع قطع الأثاث ومن كلّ زينتها، باستثناء اللّوحات الجدارية، ينتصب قصرٌ قابل للنفخ يُستخدم ملاذا لمجموعة تتراوح أعمارها بين أربع سنوات وستّ تتسلّق جدرانه البلاستيكية الوردية. كان الصّبية المرتدون مباذل

(1) نسبة إلى المذهب الطبيعي في الفكر والفن. وتمثله في الأدب الفرنسي أعمال إميل زولا. (المترجم).

مطرّزة بأشكال القلوب وصور صغار الدببة، ينعبون ويتشاجرون، وقد سال لعابهم، تَرْقبهم بانزعاج أعين الشخصيات التاريخية. ويحدجهم بعض القضاة في عباءاتهم بنظرة ازدراء من علياء لوحات عصر النهضة وقد أمالوا رؤسهم من العجب. ولما كانت مساعدتا التربية تديران لي الظهر فقد انتهزتُ الفرصة ووجّهت أنا أيضا بضع تكشيرات إلى الأطفال؛ فشرع صبيّ في النهيق.

وصلت إلى سكرتارية إ م ب[1] وأنا مُفعم بالرضا، ونظرا إلى رتبتي في هذه الإدارة، لم أستغرب كثيرًا حين رجاني الحاجب الشاب أن أدخل مكتب زميلتي على الفور، عوض أن يجعلني أنتظر مثل موظف بسيط. رفعتْ رأسها المحشورة في السجلات الإدارية، ورسمت ابتسامة ثم لوت فمها لتقول في ضيق ظاهر:

-في الواقع يا صديقي، أنا منزعجة. ويجب أن أحدّثك في قضية... غريبة!

تلك هي القاعدة في البلدية: جميع الإطارات العليا يتخاطبون دون تكلّف. واصلتْ:

-أمر سيّء قليلا... يتعلّق بك مباشرة!

تهدّلت تجاعيد وجهي في تجهّم ذاهل:

-سأختصر على نفسي الطريق وأدخل مباشرة في الموضوع. قل لي بوضوح: هل ذهبت أمس إلى دورات المياه مع بنت صغيرة؟

كانت عيناي، وقد اتسعتا اتّساعا كبيرا، تعبّران عن عدم التصديق. هل سمعت جيّدا؟ دورات مياه؟ بنت صغيرة؟ هل يسم

(1) اختصار: إدارة الموارد البشرية. (المترجم).

هذا الاختصار طُرفة يوم أمس عديمة الأهمية بميسم الشذوذ؟ تفجّر السّخط من صوتي:

-كلاّ، ولكن هل تمازحينني؟ أرجو ذلك. أنت لا تتصورين أنني يمكن أن آخذ أطفالا إلى دورات المياه؟

بدت زميلتي متضايقة:

-هذه القصة تزعجني بشكل رهيب. بالطبع أنا لا أتصوّر شيئا. ولكن... كيف أقول، إن كلمة طفل على المحكّ.

الصغيرة أبلغت عني! لقد سقطتُ في الفخّ... إلا أني في نهاية الأمر لم أقترف أيّ سوء. لا شيء أسوأ من تدخين سيجارة. شعرت بتعرّق جلدي المفاجئ. كان عليّ في تلك اللحظة أن أروي بدقة ما حدث، ولكنّ نوعا من الحياء دفعني إلى الإنكار جملة وتفصيلا، إذ لا سبيل إلى تصوير نفسي في صورة غلام قذر يدخّن مختبئا في المراحيض؛ ومن غير المجدي ذكر هذه السيجارة؛ فالصبيّة لم تكن تملك أيّ دليل. تنفست على مهل كي أهدأ قبل أن أستأنف كلامي:

-اسمعي، الأمور غاية في البساطة، نعم، ذهبت إلى دورة المياه أمس، بعد اجتماع مع العمدة. نعم، دخلت صبيّة صغيرة، لأني لم أحكم إغلاق القفل. نعم، طلبت منها أن تخرج وأعدت غلق الباب. ما دمنا في مكاتب تعجّ بالأطفال، هذه الأشياء يمكن أن تحصل، لا؟ ولا شيء آخر على الإطلاق. لن نقضي في هذا كامل اليوم!

ظلت م م ب[1] ودّية، ولكنّها بدت غير مقتنعة فعلا. تركت

(1) اختصار: مديرة الموارد البشرية. (المترجم).

بعض الوقت يمرّ قبل أن تسأل:

-هل يمكن أن أسألك ماذا كنت تفعل في دورة المياه؟

(ما هذا السؤال؟ إنّه في غير محله؟) رفعت كتفيّ هازئا:

-اسمعي كنت أقوم بما نقوم به دائما في دورات المياه.

-الصغيرة تؤكد أنك ألقيت سيجارة من النافذة. وتدّعي أيضا أنك هدّدتها!

كان تدقيق الاستجواب تدقيقا بوليسيا يتناقض مع تفاهة الوقائع الهزيلة! كنت متّهما إذن، مثلما خشيت، بتدخين سيجارة. في هذه اللحظة أيسر الأمور هو الاعتراف. ولكن، قطعا، كان من المهين أن أصف وضعي في سروال داخلي وقد تزوّدت بمفك البراغي وعقب السيجارة في فمي. واصلت وأنا أبحث عن جواب منطقي:

-هيّا، أنت تعلمين جيّدا أنّ النوافذ مقفلة. أضف إلى ذلك أنّ الحيّ الإداري برمّته مجهّز بمجسّات الدّخان!

-المزعج في الأمر، هو أنه في الساعة نفسها وعلى جادّة النصر، تلقّت امرأة مارّة من هناك عقب سيجارة على الرّأس سقط من إحدى نوافذ هذا المبنى. ودعني أقول لك إنها ليست مسرورة بالمرة وإنها تهدّد بتقديم شكوى. ولا أريد أن أثقل عليك يا صديقي...

مع أني حاولت تفادي هذه النتيجة إلا أنها أراحتني، وكأنّني كنت أنتظرها منذ البداية، منذ ذلك اليوم الذي بدأت فيه نزع قفل النافذة. لم يكن في حاجتي إلى التدخين ما لا يقاوَم؛ فقد كان الأمر

على الأغلب يتعلّق بميل شاذ إلى خرق القانون، بحاجة طفولية إلى أن أُضبط متلبّسا وأوبَّخ وأؤدَّب.... لا بأس: الكلّ سيعلم بأنّي كنت أدخّن سيجارتي خِفْية، في دورات مياه الحيّ الإداري. الجريمة تظلّ طفيفة. والعقوبة لن تتجاوز الحدود حتى وإن كان لي أن أخشى في السياق العام لمكافحة التدخين، تأخّرا في ترقيتي. بانتهاء عرض الوقائع، كنت أنتظر قرار م م ب التي بدت راغبة في إيجاد تسوية:

-اسمع، لا أعرف ماذا أقول لك، ولكنّ البنت شكت الأمر إلى والديها. وعليك أن تتوقع اتّخاذ إجراء عقابيّ ضدك خاصة مع هذه السيجارة الملقاة من النافذة... سأبحث مع مديرك سبل التوصّل إلى تفاهم معقول. أعدك بأن أبذل ما في وسعي.

وجّهتُ إلى زميلتي إيماءة مقتصدة على سبيل الشكر. ثم عدت إلى بيتي حزينا لهذا الفشل! منذ سنوات وأنا أكافح كي أفلت من الجنون السائد، من قوى العصر المستبدة؛ لم أكن أملك سيارة، لم أرزق بأطفال، لم أكن أشاهد التلفاز إلا قليلا. كنت أتجاهل أولئك الذين يريدون حمايتي كَرْهًا. منذ سنوات وأنا أبذل قصارى جهدي لنسيان هذه الإكراهات كي أتفرّغ لعملي، لحبيبتي، لحياتنا العذبة المطمئنة. رغم هذه الجهود كان الجنون السائد قد نجح في الإمساك بي. وجدت من المحرج أن أخبر لطيفة كيف أنّ م م ب أوقعت بي وكشفتني، كيف أن مسيرتي المهنية، إن لم تكن معرّضة للخطر أصلا، فللتشوّه في أفضل الأحوال. ثم إنّ العمدة الذي كان يحتاط مني سيجد الفرصة سانحة ليردّ عليّ في أوج انعقاد اجتماع علني:

-قبل أن تشغل بالك بتلوّث المدينة وبرئات المواطنين، ابدأ

بالانقطاع عن التدخين في دورات المياه!

كنت وأنا أغمغم، أداعب ساركو وقد وضع رأسه الكبير ذا الفرو الكثيف على فخذيّ وكأنّه يحاول أن يواسيني. إثر سرد قصّتي على لطيفة، قدمت لنا كأسين من مشروب مقبّل، وتمكّنت الأوركيسترا الكبيرة لكونت بازي التي كانت تبثّ على القناة، من أن تجعلني أعتقد، تقريبا، أنّ السعادة ممكنة، وأنّ النجاح المهني ليس له أيّ أهميّة مادام بوسع كل منا أن يجني فنّ العيش في عشّ حبّنا. وفي ذلك المساء كانت صاحبتي من اللباقة أن تجنّبت الحديث عن الأطفال.

* * *

لم تثر القضيّة أية موجة من ردود الفعل إلى موفّى الأسبوع. كنت أنتظر قرار م م ب، ويبدو أن لا شيء قد تسرّب إلى طاقم موظفي البلدية وأن لا شيء قد تغيّر في ظروف عملي. فقط في يوم الاثنين الموالي عند عودتي إلى البيت حدث أن كانت المفاجأة اللّعينة، إذ وجدت في صندوق الرسائل قطعة من الورق الأزرق تعلمني رسميّا باستدعائي إلى مخفر الشرطة لحضور جلسة استماع بقسم الأحداث.

نظرت إلى ورقة الإعلام دون حراك. أشتمّ رائحة أمر سيّء، سيّء جدّا. وحين مددت المكتوب إلى لطيفة والذعر بادٍ في عينيّ، ظلت هي صامتة. ولكن ما أثار جنوني حقا هو النبرة الحيوية التي صدحت بها فجأة وكأننا ندافع عن قضية ميؤوس منها:

-سنناضل!

نناضل ضدّ ماذا؟ ما داموا قد اتفقوا على أنني دخّنت سيجارة

خفْية؛ وما دمت مستعدا لدفع الثمن لأني تجاوزت القانون، ولأني عرّضت صحّة الأطفال للخطر وكدت أطلق صفّارات الإنذار المضاد للحرائق، ماذا يريدون أيضا؟ لقد تقبّلت ذنبي وعواقبه الإدارية ولكنّ الانزلاق غير المتوقع من مصلحة طاقم الموظفين إلى الشرطة القضائية لم يكن مطمْئنا البتة. قضّيت ساعات وأنا أعدّد الفرضيات: هل جمع والدا الصبيّة إليهما أولياء آخرين مقتنعين بأنّ سلوكي يعرّض رئات أبنائهم للخطر؟ وهل كانوا بصدد تشكيل اتهامات أكثر خدشا للحياء؟ لقد لاحظت من خلال الصحافة مئات المرّات، السهولة التي يتّهم بها الأطفال البالغين بأفظع الجرائم دون أيّ إمكانية للتفنيد.

قرّرت وأنا متوجِّه إلى قسم الشرطة يوم الثلاثاء الموالي أن أروي كلّ ما حدث بدقّة ودون مراوغة. بدأ عون المراقبة بفحص أوراقي ثم جعلني أمرّ تحت بوابة معدنية قبل أن يطلب المصعد، ليرسلني عبر متاهة من الممرّات إلى غاية قسم الأحداث. هناك رجتني سكرتيرة تفتقر إلى اللطافة، أن أنتظر في قاعة يميل دهانها إلى الصفرة. على ملصق معلّق على الحائط يرى الناظر وِلدانا يركضون ووراءهم يرتسم ظلُّ رجل مخيفٌ مستوحى من هذه الخرافة «اِحموا أطفالكم!» انتظرت نصف ساعة رافضا الاستسلام للخوف، قبل أن تدعوني السكرتيرة لأتبعها إلى غاية باب مكتب محافظ الشرطة. لم يكن الرجل بغيضا للوهلة الأولى. كان يجلس إلى مكتبه، شعرات رأسه قليلة وملامحه رقيقة وللسانه طلاقة تنمّ عن كائن مثقّف، ولعلّ الفعل الذي بدا لي علامة تضامن هو أنه كان يدخّن سيجارة وراء

مكتبه. فتجرّأتُ من منطلق شعور بالإيحاء على إخراج علبة من جيبي وسألته إن كنت أستطيع... فأومأ برأسه موافقا وهو يسأل في تهكم:

-التبغ، تلك هي إذن ذريعتك؟

لماذا يتكلم عن ذريعة؟ فضّلت التبسّم وبنبرة مسترخية تقريبا قلت:

-ذريعة، ولكن ذريعة من أجل ماذا؟

كان المحافظ والسيجارة بين شفتيه يعبث بمكبس أوراق عاجي جميل. ويحدجني بنظرات سريعة ثم سألني فجأة مستهزئا:

-هل يعجبك الأدب الموجّه إلى الطفل؟ أفلام والت ديزناي؟

-لمَ يجب أن أهتمّ بهذا الهراء؟

- على حدّ علمي، أنت لا تُرى كثيرا مع الأطفال. ليس لديك، حسب اعتقادي...؟

كان ينتقل من سؤال إلى آخر، وفق منطق غريب. وسواء كنت أهتم لأمر الطفولة أم لم أكن، فقد بدا سلوكي منطويًا في جوهره على شيء مريب. بدا لي هذا الرجل ذكيّا وافترضت أنه يختبرني. ودون أن أنتظر أكثر، قررت أن أضع الأمور في نصابها بكل وضوح:

-اسمع حضرة المفتش، جدول أوقاتي ليس بالأمر السِّري. فأنا أعيش في هدوء مع صاحبتي وتستطيع هي أن تؤكد لكم ذلك.

بتأكيدي على علاقتي الزوجية القائمة بداهة على التغاير الجنسي، ظننت أني أسجّل نقطة حاسمة. ظلّ برهة صامتا قبل أن يستأنف:

-ألم تنجب أطفالا من صاحبتك؟

خطئي في هذه اللحظة هوعدم الصبر. بدا وكأنّ هذه المؤاخذة قد حلّت محلّ مطالب لطيفة الضاغطة. لماذا يريدون جميعا أن يكون لديّ أطفال؟ وفي اندفاعة مفرطة وكمن يريد أن يضع حدا للشّبهات، صرخت:

-لا ليس لديّ أطفال، ذلك أنّ الأطفال يسبّبون لي القشعريرة، يداهمونني، يلتهمونني. لقد تحوّلت الإدارة البلدية إلى دار حضانة. زملائي -رجال حاصلون على شهادات عليا- يشبهون جيشا من حاضنات الطفولة. أما أنا فلا أطلب الأطفال بل أفرّ منهم. هل هذا واضح؟

غرق الشرطي في الصمت، ففهمت أنّ الأمر كان واضحا أكثر مما ينبغي. سأل مرة أخرى بصوت رقيق:

-لماذا تفرّ منهم؟ هل تخاف أن ترتكب حماقات؟

كانت حلقات الدخان المتصاعدة في مكتبه تدفعني إلى مواصلة الاعتقاد في احتمال حصول تفاهم بيننا.

-بصراحة لا أرى الغرض الذى ترمي إليه! نستطيع أن نتوقّف هنا حضرة المفتش.

-محافظ! تعرف، مشكلة الشاذّ أنه دائم الإنكار لاسيّما إذا تعلّق الأمر بالجرائم ضد الطفولة. في معظم الأحيان هو شخص ذكيّ، في مثل سنك، مثقف على الأرجح وعادي في ظاهره...

جريمة *ضد الطفولة* لقد نطق بالعبارة الرهيبة. هذه التهمة المعتبرة تقودك -يقينا وأكثر من أيّ شيء آخر- مباشرةً إلى السجن لقضاء عقوبات قاسية جدا. منذ سنتين، وبضغط من جمعيات

الضحايا، كانت القوانين قد ألغت من لغة الخطاب لفظة «بيدوفيل» باعتبارها مجاملة للمجرمين أكثر من اللازم (تنطوي هذه العبارة على فكرة «حب الطفولة» غير المتلائمة مع فظاعة الوقائع). منذ ذلك الحين وقع تفضيل عبارة «جريمة ضد الطفولة»، الأمر الذي أدّى إلى ارتباك جديد بما أن كل شخص يبدي نحو الأطفال سلوكا غير لطيف، سيرى نفسه بصورة أو بأخرى ملحقا بهذه الفئة من الشواذّ جنسيّا. وعلى فرض أن المحافظ ملمّ بهذه الفويرقات، فقد فضّلت أن أضع النقاط على الحروف:

-إن كان فهمي سليما، حضرة المحافظ، فأنت تتهمني بالشذوذ الجنسي، «بالبيدوفيليا»، كما كان يقال في الماضي. عدا أنني، وأكرر لك ذلك، لست مصابا بالبيدوفيليا بل بالبيدوفوبيا[1]. مصاب بها تماما.

-إلى حد إلحاق الأذى بهم؟

-ليس هذا ما أعنيه. أنا لا أكرههم حتى! وإنما لا أراهم، لا يعنون لي شيئا، ولا أكترث لأمرهم. هم في نظري يرقات بشرية، حيوانات صغيرة تفتقر إلى الأهمية.

-ومع الحيوانات نستطيع أن نفعل أي شيء بلا وخز من ضمير، أليس كذلك؟ كأن نجلب صبيّة إلى دورة مياه الطابق الرابع بالحيّ الإداري ونستعرض أنفسنا أمامها...

كانت المرة الأولى التي يعبّر وجهي فيها عن الغضب. فاستعدتُ مذعورًا نبرات هي أصدق ما يكون:

(1) رُهاب الطفولة: خشية من الأطفال مبالغ فيها. (المترجم).

-حضرة المحافظ، لقد دخلتْ بغتة. وكنت بصدد تذوّق سيجارتي لا غير.

أضفت بصوت خفيض كي أوقظ فيه تضامن المدخّن:

-تصوّر أنّ دورة المياه هي المكان الوحيد في البناية الذي لا يخشى فيه انطلاق صفّارة الإنذار.

-لمَ لمْ تغلق القفل جيّدا إذن؟ ولمَ كان بنطالك إلى أسفل؟

كان المحافظ يعرف كل تفصيل من تفاصيل المشهد. من الواضح أنّ القضية قد ازدادت حجمًا ووزنًا منذ عشرة أيام، وتحوّلت إلى «ملفّ» مليء بالغموض والأكاذيب والفظاعة. ومرة أخرى أجد نفسي في مقام طفل مُجرَّدًا من كرامة الراشدين ومجبرًا على تبرير كل تفصيل:

-القفل، في الواقع، يبدو أنني نسيته...

-نسيته، بالطبع: «دعوا المجال مفتوحا أمام الأطفال الصغار ليأتوا إليّ!»

فضّلت عدم التعليق وتابعت:

-البنطال، ماذا أقول لك... في كل مرة أدخّن سيجارة، أنزل بنطالي إلى أسفل...

ضحك الشرطيّ هازئا:

-إنّ هذا، لأمر مهم!

-نعم، بطبيعة الحال، أخفض بنطالي ليعتقد من يُحتمل أن يكون منتظرا وراء الباب، أنّني بصدد قضاء حاجتي فعلا.

-وكيف لهذا الشخص أن يعلم أنك أنزلت بنطالك بما أنك وراء الباب؟

-ولكن، بحقّك حضرة المحافظ، تعلم جيّدا أن تجعيد الثياب ومعقف الحزام يصدران صوتا مخصوصا. بهذا الصوت يعلم شخص ينتظر في الخارج أن المستخدم بصدد ارتداء ثيابه.

استأنفت تنفّسي. أيّ نوع من التفسير هذا الذي كنت أتفوّه به؟ كيف أمكنني أن أقضي كل هذا الوقت وأنا أفسّر لشرطيّ الطريقة التي أستعمل وفقها دورة مياه الحيّ الإداري؟ في موجة جديدة من نفاد الصبر، وكما لو أننا شخصان بينهما ما يكفي من حسن النوايا وكما لو أنّ لي الحرية في تقديم الاستنتاجات، صحت فجأة:

-اسمع، الأمر سخيف كل السخافة، لنتوقّف هنا رجاء!

-صراحةً، لا أنصحك بأن تتوخّى هذه اللهجة. أنا الذي يقرّر متى نتوقّف ومن سيُوقَف!

تردّد المحافظ لحظة إضافية.مال إلى رزمة من الورق المكدّس على مكتبه، بحث عن صفحة، أعاد في صمت قراءة مقطع ثمّ استقام ليلخّص الوضع بنبرة مسترخية تمامًا، وتكاد تكون ودّية:

-أنا أعتقد أنك مذنب. لقد درست ملفّك جيّدا: أنت رجل مثقف، تميل قليلا إلى العزلة، معاد للأطفال على الأرجح -كما لو أنك فعلا تخشى شيئا. لعلّك لم تمرّ بعد إلى مرحلة الفعل ولكنك تملك المؤهلات لتمرّ إليها في يوم من الأيام.

كل ما يمكنني قوله لا يحقّق شيئا سوى تدعيم نظريته المعدّة

مسبقا. هل كنت أستطيع إعادة توزيع أوراق اللعبة؟ مرة أخيرة، غرفت من مصادري من أجل أن أثبت براءتي:

-والسروال الدّاخلي؟ حدّثتْك عن السروال الدّاخلي؟

-أيّ سروال داخلي؟

-أؤكد لك حضرة المفتش، أنّ سروالي الداخلي كان مرفوعا. قالت لك البنت ذلك حتما! فلو كنت أردت ارتكاب اعتداء بالفاحشة، لكنت أنزلته. أليس دليلا على أنني كنت هناك لتدخين سيجارة؟

-يبدو أيضا أنه كان لديك مفكّ براغٍ في إحدى يديك.

-نعم، مفكّ براغ صغير لفتح النافذة طلبا للتهوئة. يمكنك العثور عليه في بيتي في صندوق المعدّات.

-المشكلة أن الصغيرة تدّعي أنك قد هدّدتها بمفك البراغي هذا!

فقدت من جديد برودة أعصابي:

-هل قالت ذلك، هذه الطفلة القذرة؟ حسنا إذن، كلا يا سيدي، لقد طردتها، بكل بساطة، من دورة المياه كي لا تزعجني وأنا بصدد التدخين!

كان الشرطي ينظر في عينيّ:

-تعرف، لقد رأيت عددا كثيرًا من أمثالك، ومعظمهم اعترف في نهاية المطاف. ولكن في حالتك أنت على وجه الخصوص، عديد الأسئلة تتعالق. فأمّا السيجارة في دورة المياه، فستحلّ إدارتك الأمر معك مباشرة. وأما عقب السيجارة فأكثر مدعاة

للقلق، فهناك شكوى تلك المرأة بسبب الخطر الذي جعلْتَها تتعرّض له، ومحاميها يطالب بالتعويضات.

كان يقول هذا الكلام وهو يشير بإصبعه إلى الملاحظات المتراكمة أمامه على سبيل التثبّت. ثم بلع شيئا من ريقه قبل أن يتابع:

-آمل، من أجلك، أن يقرّر القاضي التوقّف في القضية عند هذا الحدّ. ولكنّ هذا سيعني أنني فشلت. ذلك أني، شخصيا، لا أنوي إفلاتك.

لفظ هذه الكلمات الأخيرة في لين تقريبا، وذهب في الترفّق إلى غاية تفصيل الإجراءات القانونية:

-في الواقع كل شيء وقْف على الصغيرة لقد سمعتها أول أمس ولكنها لم تذهب إلى مدى أبعد في توضيحاتها. سنعيد سماعها الأسبوع المقبل مع أخصّائيين نفسانيين وآمل أن تقول لنا ما حصل فعلا.

صدمت بهذا القدر من سوء الطويّة. لقد كان يريد بأيّ ثمن أن يكتشف شيئا وضيعا لغاية حددها هو نفسه:

-تعرف.. في مهنتي هناك قاعدة مطلقة: الأطفال لا يكذبون مطلقا. أستطيع أن أقرّر التزام الدقّة، فآخذ في الاعتبار مسوّغاتك الألف لأن تكون بريئا. ولكن يجب قبل ذلك، وباستمرار، العودة إلى تلك القاعدة الذهبية: سماع الصبيّة كي لا نخاطر -عن طريق الغفلة- بتعريض أطفال آخرين للخطر. ولو لم يكن هناك إلا احتمال واحد من مائة لأن تكون

مذنبا لناصرت إيقافك إيقافا مؤقتا... ولكن للقاضي أن يتّخذ القرار.

هل نطق بكلمة «إيقاف»؟ هل سقطت إلى الحضيض إلى هذا الحدّ؟

قام المحافظ ليصحبني، وقد ظلّ وقحا إلى آخر المقابلة، أمسكني من كتفي وهو يقول مدقّقا:

-في الوقت الحاضر، تبقى في حالة سراح. ولكن ترقّب استدعاءك مجدّدا.

غادرت المكتب وأنا أترنّح. عند الخروج من قسم الشرطة كان أول ردّ فعل لي هو عبور سياج متنزّه الملكة القريب جدا، ثم الذهاب للجلوس على مقعد قريب من حوض البط. لطالما أحببت مشاهدة البط وهو ينزلق على الماء في هذا الديكور الاصطناعي من الشجيرات والصخور المغمورة كما لو أنها منحدر صخري؛ أحب أن أرى هذه الطيور تطأ بقوائمها المزعنَفة أرض الجزيرة الاصطناعية حيث تحيا حياة الملوك، ثم تنتفض وتدرج متمايلة الواحدة تلو الأخرى. بعد أن جلست، ظللت ساكنا في هذه الحال من التأمّل المغتبط كما لو أنه عليّ فقط أن أتنفس بهدوء وأنا أردّد في نفسي: «لا أريد أن أُمنَع من رؤية البط. لا أريد أن أذهب إلى السجن.»

استأنفت طريقي كالمنوَّم. وعوض أن أعود إلى المنزل مباشرة، دخلت مقهى وطلبت جعة. كان من الممكن أن أروي للساقي أحزاني غير أنّ الأمر متعلّق بجريمة ضدّ الطفولة وهي من نوع الجرائم التي لا يُتحدّث عنها. إضافة إلى ذلك، كان النادل والزبائن

في تلك اللحظة مثل أهل البلاد جميعًا مُديرين رؤوسهم نحو جهاز التلفزيون لمتابعة آخر أخبار ديزيري جونسون؛ المسلسل القضائي الواقعيّ الذي سيبلغ أوجه، عصر ذلك اليوم، مع النقل المباشر لريبورتاج السيجارة الأخيرة.

## (6)

«أعزائي المشاهدين، ها نحن معا لنتقاسم لحظة عاطفية رائعة ونكتشف حلّ العقدة في هذه القضية التي أثارت ضجّة كبرى منذ أكثر من أسبوعين. يكفي أن تشغّلوا تلفيزيوناتكم لتحظوا بالمعلومة، ولتطرح عليكم الأسئلة، ولتقع دعوتكم للإدلاء بدلوكم في النقاش. إن التغطية المباشرة التي ستواكبونها بعد لحظات على قناة العدالة تمثّل في حدّ ذاتها موضوعا للجدل. فرغم موافقة السلط القضائية، قدّر البعض علنا أنّ وقائع هذا الحدث ينبغي أن تدور في جلسة مغلقة، وهو ما نخالفهم فيه الرأي. ونهنّئ أنفسنا على شفافية حلّ هذه العقدة، وهو ما يسجّل انتصارا ثلاثيا: انتصارا للعدالة التي سينفَّذ حكمها أخيرا، وانتصارا لديزيري جونسون المحكوم عليه بالإعدام الذي سيشعل، ففي غضون بضع دقائق، سيجارته الأخيرة، على المباشر، وانتصارا في نهاية المطاف، لقناة العدالة التي وفّرت الوسائل التقنية متيحة تحقيق هذه الرغبة الأخيرة وبثها في جميع أنحاء العالم ليتابعها عشرات الملايين من المشاهدين...»

على الرغم من نبرة كلام المقدّم الحيوية، فقد حمل صوته مسحة من وقار. إذ لم ينسَ وهو يمسك بالميكروفون والريح ترفع شعر رأسه رفعا طفيفا، أنه يقدّم على المباشر نهاية رجل هو نفسه قاتل لأحد رجال

الشرطة. منذ خمسة عشر يوما، والنقاشات حول جونسون وعقوبة الإعدام والحقّ في التدخين، تُقسِّم الأحزابَ السياسية ومجموعات الصداقة، والعائلات. وقد بلغ الأمر بالزبائن في بعض الحانات حد تبادل وجهات النظر بالأيدي. قبل أن يستأنف المقدّم البث وقف أمام المرآة بحثا عن الهيئة المناسبة لحلّ عقدة هذا الوضع القضائي المربك: انتهى إلى تبنّي مزيج من الحيوية والعاطفة المعتدلة؛ لقد ولّى زمن مناقاشات الخبراء؛ و يتعلّق الأمر الآن بمعايشة لحظة عاطفية بدعم من شركة التبغ. كان شعار هذه الشركة المتعددة الجنسيات باللّونين الأحمر والذهبي يطفو على أعلام صغيرة غرست حول الحظيرة حيث سيستمتع المحكوم عليه، بعد لحظات، متعته الأخيرة قبل أن يعود إلى المركز العقابي ليتلقّى فيه الحقنة المميتة.

«كما تعلمون أعزاءنا المشاهدين، إثر صدور قرار محكمة العدل العليا الرافِض لطلب المحامية مارين باتاكي (التي كانت تطالب بتأجيل التنفيذ)، والمعترِف في الآن ذاته للمحكوم عليه بحقه في تحقيق رغبته الأخيرة وهو حقّ لا يسقط بالتقادم، وجدت إدارة السجن نفسها في مواجهة وضعية غير مسبوقة. كيف يمكن تدخين سيجارة في مكان مجهّز برمّته بمجسّات الدخان؟ و كيف السبيل إلى تفادي سيل الدّعاوى التي تلوّح بها الجمعيات المناهضة للتدخين، وهي التي ما تزال تقيم حصارا حول المنشأة من أجل المطالبة بتطبيق صارم للقانون؟ وكيف يمكن إرضاء نقابة حرّاس السجن وجمعيّةٍ للسجناء اتخذت لها حيال الأمر موقفا مبدئيا: « لا للتدخين السلبي في سجننا!» وعلى النقيض من ذلك، تمنّى عددٌ من الممثلين لطاقم

السجن استغلال الظرف للحصول على فضاء خاصّ بالمدخّنين. حينذاك بيّنت شركة التبغ العامة أنها مستعدّة لتوفير البنى التحتية اللازمة لتتيح لديزيري جونسون تدخين سيجارته في كنف احترام معايير السلامة، دون إرهاق ميزانية الإدارة السجنية. وبعد دراسة عدة فرضيات، آثرت الشركة والسلطات القضائية هذه الأرض الواقعة على بعد كيلومتر من مركز الاعتقال حيث الهواء الطلق...»

تشير يد المقدِّم إلى المرج الصغير الممتد وراءه، وقد تناثرت فيه زهور الربيع. خلال الأيام السابقة أقيم حوله سياج يبلغ ارتفاعه المترين. وانتصبت نقاط الحراسة الأربع في زوايا الحقل يشغلها حرّاس مسلحون تسليحًا ثقيلاً. وفي كثير من اللقطات المقرّبة، كانت عدسة الكاميرا تكبّر صور وجوههم المحمية بأقنعة الشاش.

«... لقد تلقّى الرجال المعيّنون لتأمين مراقبة هذه العملية تجهيزات خاصة معدّة لحمايتهم من انبعاثات دخان السجائر. فضلا عن أنهم سيحصلون من لدن شركة التبغ على منحة خصوصية مقابل هذا النشاط خارج المركز العقابي... ولكن لنكتشف الآن الطاولة والكرسيّ الموضوعين تحت تصرّف ديزيري جونسون ليدخّن سيجارته بكل هدوء...»

العدسة الآن مُصوَّبةٌ إلى داخل المرج الذي انتشرت فيه الهندباء والأقحوان والبنفسج. داخل هذه الحديقة المهيّأة على عجل، وُضِعت طاولة وكرسي من الطراز المخصّص للحدائق، مصنوعان من بلاستيك أبيض يحاكي الحديد المسبوك... يضيق إطار الصورة أكثر ليرينا الأشياء الموضوعة على الطاولة من قبل المنظّمين: منفضة

سجائر، وولاّعة وعلبة سجائر مطابقة للمعايير السائدة، مزدانة بصورة رئة مصابة بالسرطان. كانت شركة التبغ تتمنى أن توفر للمحكوم عليه علبة خاصة مجرّدة من كلّ تلميح سقيم. ولكن في هذه النقطة فازت الجمعيات المناهضة للتدخين: فلا حظوة للمجرم ديزيري جونسون.

«...ولكن ها هم يتحرّكون من جهة المركز العقابي... آلو جاك، هل تسمعني؟»

تُواصِل الكاميرا قطع المرج المزهِر بينما ينطلق حوار خارج البث[1].

«نعم يا ميشا، أسمعك جيّدا، أنا موجود في مدخل السّجن وقد فُتحت أبوابه للتوّ. ونحن ننتظر أن تظهر بين حين وآخر العربة التي ستقلّ المحكوم عليه نحو مكان التّنفيذ... أقصد، بالأحرى: تنفيذ تحقيق رغبته الأخيرة!»

-«من المهمّ التوضيح بدقّة أنّ المسافة التي تفصل السجن عن هذا المرج المهيّأ من قبل شركة التبغ تبلغ حوالي الكيلومتر، أليس كذلك جاك؟»

-«كيلومتر وثلاثمائة بالضبط. ولكن ها هو، ميشا، لقد تم الأمر، العربة تخرج من السجن!»

انحسرت صورة المرج وعُوّضت بإطار مثبّت على المركز العقابي. يرى الناظر عربة تتقدّم، تدعمها مصفحّتان خفيفتان، للتدخّل إذا ما ألهمت قضية الدولة هذه إحدى العصابات الإرهابية الصغيرة.

(1) بث الحوار صوتا دون صورة.

اختفت صورة العربات على الطريق قبل أن تعود من جديد بواسطة كاميرا موضوعة في مدخل المرج. خفّفت العربة من سرعتها ثم توقّفت أمام السّياج. بينما يقدّم ميشا مزيدا من التوضيحات:

«من بين النقاشات التي أثارها اليوم ما يعرف بقضية جونسون، نقاش هو من أشدّها حساسية يخصّ حقّ البث العلني لمثل هذه اللحظات الأخيرة من حياة إنسان. جدير بالذكر أنّ المحكوم عليه قد سئل من قبل محاميته، الأستاذة مارين باتاكي، وقد أعطى موافقته... وكان يمكن لإدارة السجن، مع ذلك، أن تعارض هذه التغطية الإعلامية. أمّا الجمعيات المناهضة للإدمان على التدخين، فقد عبّرت عن أسفها لتوظيف قرار من قرارات العدالة في عرض دعائي لصالح السيجارة. علما وأن الدعاية ممنوعة أساسا...»

قفز رجال مسلحون من المدرّعتين الخفيفتين لأخذ أماكنهم حول العربة التي لا تزال مغلقة.

«في الواقع، يبدو أن الحجج القانونية قد خدمت شركة التبغ، فبعض المحامين يؤكّدون أنّ إدارة السّجن لا تستطيع قانونا إجراء تنفيذ للإعدام خاصّ بالمدخّنين إلا إذا أوكلت تنظيمه لأحد المتعهّدين. ولقاء خدماتها، حصلت مؤسسة السجائر على الحقوق السمعية البصرية المتعلّقة بالحدث، ولكن كان عليها أن تلتزم بألاّ تقوم خلال البث بأيّ فعل يمكن أن يكون ذا صلة بالدعاية لماركات السجائر التابعة لها. بيد أنّ رئيس شركة التبغ يفضّل الحديث عن «لحظة تفكير» يدعو إليها المشاهدين في كنف

الاحترام التام لآرائهم. ولكن، مهلا جاك، هو ذا الآن حارس يقترب ليفتح العربة. سنكتشف المحكوم عليه على المباشر، المذهل ديزيري جونسون...»

رفع ميشا صوته وهو يتلفّظ بهذه الجملة الأخيرة، كما لو كان العرض بصدد الانطلاق. ينزل جونسون من الشاحنة مرتديًا بزّة السجين وهي نوع من القماش البرتقالي الخشن فُصِّل من قطعة واحدة. يركّز جميع المشاهدين أنظارهم على منكبيه العريضين وجدائله الرّاستا وعينيه الخضراوين... ينبثق تعبير رضى من هذا الوجه الواثق الذي بدا باحثا عن العدسة ثم وقف جامدا أمام الكاميرا. لم يعد جونسون ذاك السجين الذاهل؛ إنه يؤدّي إطلالة على جمهوره ويرفع يديه المقيّدتين إحداهما إلى الأخرى بقيود ثقيلة، في إشارة نصر. فيبدو وكأن شعوره بالرّضى لحصوله على ما كان يريد جعله يتغلّب على تخوّفه من عقوبة الإعدام التي ستطبّق بعد أقلّ من ساعة:

«كنا نطمع في محاورة المحكوم عليه لمعرفة انطباعاته الأخيرة، ورأيه في تنظيم الحدث، واختيار هذا المرج...ولكنّ السلطات حجّرت علينا للأسف الاقتراب من ديزيري جونسون لأسباب نتفهّمها. ذلك أن هذا الرجل ليس قدّيسا. لقد أدين بارتكابه جريمة قتل شرطيّ، أب لثلاثة أطفال. كان عمر الضّحيّة وقتها ثلاثة وأربعين عاما. واليوم حلّ الأجل بالنسبة إلى جونسون لسداد دينه...»

يقود حارسان المحكوم عليه إلى غاية مدخل حقل المدخّنين. ثمّ

يتقدّم رجل ثالث كي يفكّ القيود. وما إن حُرِّر جونسون من أغلاله حتى هزّ ذراعيه لحظةً ورفع رأسه بابتسامة طريفة ثم تقدّم وحده داخل الحظيرة، بينما يبدي المعلّق استغرابه:

«يا له من قاتل عجيب، لطالما أنكر جريمته، ولكنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من الترديد على امتداد المحاكمة: «بصراحة، إن كان عليّ أن أقتل أحدهم فإني سأختار سافلا من هذا النوع!» وإننا لنفهم لماذا حافظت المحكمة على عقوبة الإعدام، وبالمناسبة نذكّر بأنّها ألغيت رسميا في كامل الاتحاد باستثناء بعض الولايات، وفي بعض الحالات، ومنها قتل أحد عناصر قوى حفظ النظام... إذن دون إشفاق ولكن في شيء من الانفعال نحن نرى ديزيري جونسون يتقدّم نحو طاولة الحديقة حيث تنتظره سيجارته. مشهد على درجة من الرّوعة، أليس كذلك جاك؟»

-«وهو كذلك، عندما نفكر في أنّ هذا المستفِزّ الغريب يحيا أمامنا دقائقه الأخيرة! وخصوصا عندما نفكّر في أنه يحيا هذه الدقائق الأخيرة بلامبالاة المدخِّن الانتحارية!»

-«فعلا، عزيزي جاك، ذلك هو التناقض الرهيب في هذه القضية. نستطيع أن نفهم أن شخصا سيموت يتمنّى إشعال سيجارة، ولكن يجب ألاّ يخلّف الاهتمامُ الذي أثارته حالتُه آثارا تؤدّي إلى تجدّد استحسان الإدمان على التدخين!»

-«أنا شخصيا، سعيد جدا لأنّي انقطعت عن التدخين منذ سبعة أعوام. ولكن ما يشوّقنا اليوم هو هذه السابقة القضائية؛ هذا

الرجل المخوَّل له شكليّا أن يحقّق رغبته الأخيرة، هذا الرجل الذي يبلغ الآن مراده.»

أثناء هذا الحوار، خطا السجين خطوات على العشب ووجهه يزداد إشراقا. توقّف عدة وقفات بثّت من زوايا مختلفة بواسطة الكاميرات المقامة حول المرج. ها هو يثني ركبتيه في هذه اللحظة، وينحني إلى الأرض. يمدّ يده، ثم يداعب بسبّابته بتلات أقحوانة قبل أن يقطفها في رفق. ثم يمدّ يده الأخرى، ويقطف بنفسجة، ويشرع في صنع باقة. ظل المقدّمان جاك وميشا صامتين طيلة لحظات لم تقطعها إلاّ أقوالهما الموجزة:

-«غير معقول ماذا يفعل؟»

-«يبدو أنه يبحث عن شيء...»

-«لا، أعتقد أنه يقطف زهورا!»

ظهر رأس ميشا على الشاشة مرة أخرى. كان يمسك مصدحه بحزم أمام المرج حيث لايزال جونسون جاثمًا إلى الأرض منهمكا. ولم يلبث المذيع أن تخلّى، مصدوما، عن حيادية التّعليق الصارمة:

«ترون مثلي هذا المشهد الرائع. كيف لرجل مدان بقتله شرطيّا، أن يتوقّف عند عتبة موته الخاص ليقطف زهور البرّية؟ لكم نودّ أن ندرك معنى هذه الحركة.»

-«على كل حال، ميشا، إنّ الذين كانوا ينظرون إلى جونسون على أنه وحش لابدّ أنهم قد أصيبوا بخيبة أمل...»

-«يبدو أنه ينهض الآن ويقترب من الطاولة. شاهدوا: إنه يحمل

في يده باقة زهوره...»

-«هل هي لفتة أخيرة لهذه الأرض التي سيغادرها؟ أعتقد أنّه سيشعل الآن سيجارته.

-«أيّ تقارب غريب! السيجارة وقطرانها السّام، والزهور البرّية، رمز النضارة... أتصوّر أنّ أكثر من مشاهد سيتساءل ولا بدّ عن تصرّفات جونسون.»

ينتصب المحكوم عليه قائما. وبدل أن يجلس، يدفع بعلبة السجائر إلى حافة الطاولة. ثم ينثر كما اتفق زهرات الأقحوان والهندباء والبنفسج على مساحة البلاستيك الأبيض. ونراه بصدد الحركة من جديد في زيّه البرتقالي الملدَّن. فجأة تتلاشى الصورة تدريجيا في الشاشة، فتتولّى الأمر كاميرا أخرى تنقل صورة ثابتة لوجه أحد الحرّاس وراء قناعه الواقي من التدخين بينما ينبري صوت ميشا معلِّقا:

«أمر غير معقول، جاك، يحدث أمر غير معقول...»

-«بيّنْ لنا ميشا! فالصورة لم تعد تسمح برؤية ما يحدث. أظن أنّ المخرج ذاهل قليلا.»

-«في الواقع، نعم، أظن أن المحكوم عليه بالإعدام ديزيري جونسون، يحاول تبليغ رسالة.»

-«رسالة؟»

تعود الصورة ويظهر جونسون منحنيا على الطاولة، لا يُرى إلا من الظهر، ولكن بفضل شاشات المراقبة يصف ميشا حركات

السجين بدقة:

«أظن أنه يرسم حروفا بواسطة الزهور البرّيّة كأنه يريد أن يقول شيئا...»

-«سيكون سبقا صحفيا مذهلا، ميشا. تعرف أن جونسون ليس من حقه الإدلاء بأيّ تصريح بمناسبة هذه الرغبة الأخيرة! إذا فعل ذلك، فإنه يمكن أن يؤدّي حتى إلى اضطراب سير هذا البرنامج.»

-«فعلا، ينطوي الرّهان على مخاطرة؛ لهذا تردّد مخرج برنامجنا لحظة. لكن يبدو أن العدالة لا تتدخل في الوقت الحاضر. أتصوّر أن جونسون يريد استغلال المناسبة لإعلان براءته... يتناول أقحوانة مجدّدا، فإذا بالكلمات تصبح شيئا فشيئا قابلة للقراءة. أحاول أن أفهم... نعم، هو ذا، أمر لا يصدّق!»

يستقيم جسم جونسون الضخم أخيرا. يلتفت وجهه المسترخي نحو عدسة الكاميرا، ثم يتنحّى جانبا فاسحا المجال للأحرف النباتية الموضوعة على الطاولة البيضاء، لتظهر هذه الجملة القصيرة المؤلّفة من السيقان والبتلات والأسداء[1]؛ كلمتان مهداتان إلى ملايين المشاهدين:

تحيا الحياة

بعد برهة من الصمت، استأنف صوت ميشا:

«أنتم تكتشفون هذه الجملة معنا في الوقت نفسه. جونسون

(1) مفردها سداة وهي العضو الذكري في الزهرة الذي يتكوّن من خيط ومتك ويحتوي حبوب اللقاح.(المترجم).

المذهل! مرة أخرى يربك الجميع بعدم قوله: «أنا بريء...» لا، إنّ المعنى أعمّ بكثير.»

-«حقا، ميشا. تكريم للحياة كُتب بواسطة زهرات؛ من الصعب أن نصدّق أنّ صيغة من هذا النوع تخرج من دماغ قاتل.»

-«فقط لو لم يكرّر هذا الرجل الذي نحبّ الاعتقاد في براءته، على امتداد محاكمته أنه كان قادرا على قتل هذا الشرطيّ بسهولة!»

-«ولكن تذكّروا أنه قال أيضا: لا يمكن أن أسيء أبدًا إلى مُسنّ أو امرأة ولا إلى طفل...»

-«لقد عبّر للتوّ مرة أخرى عن حبّ للرِّقة واللّطافة الواهنة. هل تعرف الفكرة التي تخامرني، جاك؟»

-«لا.»

-«ماذا لو أنّ قضيّة السيجارة هذه برمّتها، لم تكن سوى وسيلة للوصول إلى ما نحن فيه؛ خطّة رائعة تهدف إلى تبليغ هذه الرسالة قبل المات...»

وكما لو أنه يريد تأكيد هذه الأقوال، جلس جونسون أخيرا على كرسيّ الحديقة. يميل نحو الطاولة ويتناول العلبة ثم يخرج سيجارة المحكوم عليه، يقرّبها من فمه ويشعلها. لقد اتّخذ موقعا يُمكّن جمهور النظارة، في الوقت الذي يشاهده فيه وهو يدخّن، من أن يقرأ هذه الجملة المسجّلة إلى جانبه: «تحيا الحياة».ولكن لمَ يترك هذا الرجل المدهش الغموض يحوم حتّى اللّحظة الأخيرة؟ لماذا بدلا من أن يصرخ لينجو بجلده، ينبري ليخاطب ضمائرنا جميعا؟»

يتلذّذ ديزيري جونسون الآن بكل سَحبة من دخان، ويبدو كمن يتواصل مع الأمّة كلّها. ملايين المشاهدين يتأوّلون الرسالة كلٌّ حسب طريقته. مسؤولو شركة التبغ المجتمعون في قاعة المؤتمرات الخاصة بهم عند شارع الرئيس بوش، يفكّرون في أنّ المؤسسة تستطيع بمساعدة فاعل من هذا القبيل، أن تخرج من وضعها الخطِر وتستعيد آفاقها المشرقة. والمحامية مارين باتاكي التي فشلت في محاولاتها للحصول على عفو جديد، تدرك أنه مع زبون مثله كل الآمال ممكنة. رئيس الجمهورية نفسه واجم أمام تلفازه. إنه يفكّر في معنى الحياة وفي السخط الانفعالي الذي يمكن أن يسببه إعدام رجل مثله. هذا ما يمكن تصوره على الأقل بينما يعود جونسون إلى الزنزانة المتنقّلة للتوجّه إلى السجن وتلقي الحقنة المميتة. ففي الوقت الذي عبرت فيه الشاحنة فناء المركز العقابي، ظهر على الشاشة من جديد، خيال ميشا المكهرب وفي يده المصدح ليعلن لاهثا:

-«اليوم، تتتالى قطعًا عمليات السّبق الصحفي. بلغنا للتوّ أنّ الرّئيس قد اتّصل عبر الهاتف في اللحظة الأخيرة ليمنح عفوه للمحكوم عليه بالإعدام ديزيري جونسون.»

(7)

عند وصولي إلى زقاق الهورتونسياس، كانت كلمات المحافظ ما تزال تتردّد في أذني: «أعتقد أنك مذنب، وشخصيا لا أنوي إفلاتك...» وعلى امتداد الرصيف، كانت الحدائق الزاهرة تضوع بشذى الربيع. ولكنّ التّهديد المروّع جعل هذا الجمال هشًّا وأثار فيّ رغبة الإجهاش بالبكاء. واثبًا من المنزل نحوي، اقترب ساركو ليتلقّى مداعباتي فضممته إلى فخذي في يأس. كنت أتساءل وقد سحقني الاتهام، كيف سأروي للطيفة وقائع المشهد الذي كان منذ قليل. وإزاء لوني الممتقع، وتعثّري في الكلام، فهمت هي على الفور. ألحّت بما يكفي من اللّباقة كي أصف بدقّة المقابلة مع الشّرطي وقرار ختمه للبحث. خلال الصمت الذي تلا ذلك، نظرت إليّ صاحبتي بتلك الثقة التي عهدتها فيها، وبطاقة الأشخاص المتحضّرين، المقتنعين بأنّه لا بدّ من وجود حلّ، وكرّرت:

-سنناضل!

كانت عظيمة، نقيّة، باسمة. وهذه المرة أسرتني إرادتها القتالية. ألم يكن ظاهر لطيفة نفسه بوصفها امرأة جميلة متألقة، يشكّل قرينة كافية لبراءتي؟ كيف يمكن لمن يعشق مثل هذه الإلهة، أن يخفي داخله شاذّا جنسيا؟ كانت شخصيتها تعمل لصالحي بلا ريب. قرّرتُ، وأنا

أغالب الألم الشديد الذي يعصر بطني، أن أحذو حذوها؛ أول شيء يتعيّن عليّ القيام به هو إيجاد محام.

لاشكّ في أنها ظنّت نفسها تبلي حَسنًا وهي تهمس إليّ خلال العشاء باسم مارين باتاكي التي أصبحت مشهورة بعد أن أنقذت ديزيري جونسون من الموت. من الممكن أن يبدو التقريب بين غايتين على درجة كبرى من التباعد أمرا يبعث على القلق، ولكنّ لطيفة كانت ترنو إلى البعيد؛ كانت تريد الحصول بأيّ ثمن على أفضل الموجود. لذا فمن الطبيعيّ تماما أن تركّز انتباهها على تلك المغمورة بالأضواء، لقد أنقذت للتوّ المجرم الأسود من الحقنة المميتة. كنت أجهل، نتيجة معلومات خاطئة، أن لا علاقة للأستاذة مارين باتاكي بإنقاذ جونسون، بل إنّها يسّرت إدانته بترافعها الأخرق. وحده جونسون من توصّل إلى فكرة السيجارة الأخيرة. وحده جونسون من أنقذ ما يمكن إنقاذه بأدائه التلفزيّ المذهل. وكلّ هذا لن أكتشفه إلا بعد مرور فترة طويلة. ذلك أن لطيفة في هذا الوقت كانت لها رؤية أخرى للقضية: بإنقاذ مارين باتاكي هذا الرجل بفضل «سيجارة المحكوم عليه»، أصبحت *المناضلة الحقوقية* المهووسة بالمدافعين عن الحقّ في التدخين. وما دامت قد استطاعت جعل مجرم ينال العفو، فلن تجد أيّ صعوبة في تبرئة مدخّن بسيط يشتبه خطأ في ارتكابه جريمة ضدّ الطفولة. زد عليه أنها تتمتع بمساندة صاحبة النفوذ الكبير، شركة التبغ العامة التي سترى في حالتي مناسبة إضافية لحث المدخّنين على رفع رؤوسهم.

كان العائق الأول هو الاتصال بهذه المرأة في أوج مجدها، وقد

تحوّلت إلى مديرة أعمال رسمية لـ«ديزيري» (كما يناديه الجميع الآن)، صديق الحياة والأطفال والزهور. أقامت لطيفة الدنيا وأقعدتها للاتصال بالمحامية، وإقناعها بأننا لا نشكّل مصدر إزعاج، وبأننا لسنا ممن تجلبهم الشهرة، ولبيان أن قضيّتي مثيرة للاهتمام، هذا فضلا عن كونها قادرة على دفع الأتعاب. كنا نجهل أن شركة التبغ، نظرًا إلى المدى المفاجئ الذي بلغته قضية جونسون، قد كلّفت للتوّ مكتب محاماة كبير ليحلّ محلّ هذه المعيّنة من قبل المحكمة، وليعيد النظر في القضية. كان أمل مارين باتاكي الأخير معلّقا بمزاج جونسون غير المتوقّع، إذ هو الوحيد القادر على فرضها على الشركة. في انتظار ذلك، واستغلالا لشهرتها المؤقتة، كانت تسارع إلى الموافقة على كل طلب توكيل يوجّه إليها؛ فبدا لها اتصال لطيفة فرصة من بين عديد الفرص الأخرى لتوسيع دائرة عملائها.

ظلّ ديزيري يتصدّر الصحف كلّ صباح. وقد تلا العفو الرّئاسي ظهور عريضة موقّعة من قبل كبار عقلاء البلاد من أجل فتح تحقيق جديد: «من العسير علينا تصديق أن يكون صديق الحياة والأطفال والزهور مجرما. أليست جريمته الوحيدة أنه فقير وأسود البشرة؟»

طوال عدة أيام، كانت فكرة أنّ بيني وبين رجل على غاية من الشهرة محامية مشتركة، ترفع من معنوياتي. وخلال لقائي بها في مكتبها الصغير، أبدت الأستاذة مارين باتاكي ثقةً شديدة في ما يتعلّق بوضعيتي: لا يمكن أن يمسّني سوء لنقص الأدلة. مع ذلك لم تعجبني طريقتها في مقاطعة أسئلتي الحارقة بابتسامة أموميّة:

-لا تزعج نفسك، فذلك عديم الجدوى!

ثمّ أضافت وهي تلتفت إلى لطيفة في نبرة تواطؤ أنثوي:

-أشعر بأني إزاء ابني ذي الاثني عشر عاما. هو دائم القلق لسماع الجواب.

لاحقا، عادت الضحكات التي تبادلتاها آنذاك إلى ذهني كضوضاء مزعجة.

في الحيّ الإداري، طلبت إجازة لبضعة أيام كي أعدّ دفاعي. صرت أنزل كل صباح إلى ممشى الحديقة كي أفرغ صندوق الرسائل خشية عدم التفطّن لوصول دعوة قاضي التحقيق، حتى وصلت في الأسبوع الموالي. على صفحة الجريدة الصادرة يومئذ ظهرت مرة أخرى صورة لديزيري جونسون وباقة زهوره في يده. فكرت وأنا أشعر ببعض الدّوار، في أنّ هذا الرجل قد أفلت لتوّه من الموت بفضل سيجارة، بينما أنا... أرتعد قرفا وأنا أتخيّل المدى الذي يمكن أن يقود إليه التناظر بين الحالات.

لم يكن من حقّ لطيفة مرافقتي لحضور الجلسة، فهي ليست زوجتي رسميا. تركتها في بهو قصر العدالة الواسع، بعد أن ضمتني إليها بين ذراعيها، حاولت أن تشدّ أزري:

-ابق هادئًا. قل ما حدث. وكلّ شيء سيكون على ما يرام. ولكن عليك، خاصة، أن تثق في محاميتك.

في خصوص هذه النقطة الأخيرة كانت لطيفة مخطئة. لأنّه من الصعب الوثوق في محامية غائبة. ذلك أنّ الأستاذة مارين باتاكي لم تكن قد وصلت بعد، عندما دخلتُ مكتب قاضي التحقيق، وهي امرأة بدينة، شعرها مصفّف على الطريقة الذكوريّة. وقد استقبلتني

بصوت مدوّ:

-اجلس أيها السيد، هاوي الفتيات الصغيرات.

بدا الأمر شبيها بما حدث مع المحافظ، فقد حُسم الأمر ولن يغيّر ما سأنفيه عن نفسي من القضيّة شيئا. استولى عليّ الخوف من جديد. وفي محاولة للإفلات من نظرتها الشبيهة بنظرة السعلاة، رفعت رأسي نحو رسم زيتي كبير معلّق وراءها أعلى المكتب: لوحة على النمط الفنّي الإطفائي[1] تمثل في الوسط مجموعة أطفال عراة، نصف رضّع ونصف ملائكة، يضطربون في غيمة من قُطن. لقد أعاد الرسام، في انشغاله اللا نهائيّ بالتفاصيل، إنتاج أشكال الامتلاء الجسماني، ولون الأرداف والنهود الوردية الصغيرة. وقبل أن أفتح فمي تجشّأت القاضية، كما لو أنها قد أوقعتني للتو في فخ نصبته لي:

-جميلات هنّ بناتي الصغيرات، هاه؟ ولكن حذار، ممنوع اللّمس!

لم يترك قدوم الأستاذة مارين باتاكي المتأخّر انطباعا أفضل. فقد وصلت المرأة الصغيرة الشعثاء متورّمة من فرط الغرور بفعل شهرتها الأخيرة، ودخلت المكتب محمّلة بالملفات، وهي توضّح في ابتهاج المنتصر استمرار احتفاظها بملف جونسون، وبطلب منه. بالكاد اعتذرت عن تأخرها، وهو ما جعلها تستحق ملاحظة قاسية من القاضية. وكي لا تترك نفسها عرضة للإفحام أطلقت محاميتي العنان لحجاجها الذي كان يقوم على ثلاث نقاط:

1) إنّ إلغاء فضاءات التدخين من الإدارات كان أمرا مؤسفا.

(1) نسبة إلى «رجال المطافئ» Art Pompier ويعرف أيضا بالفن الأكاديمي.من أهم مبادئه رسم الأجساد العارية و تقليد القدامى ومحاكاة الطبيعة.(المترجم).

وهذه القضية الجديدة دليل على ذلك. أما تصرفي الجنوني في دورة المياه فهو بالتأكيد متعلّق بالإحباط. وعليه فإن إحدى الشركات المنتجة للسجائر بصدد دراسة إمكانية إقامة فضاءات تدخين في الإدارات على نفقتها الخاصة.

بدت لي إحالتها على شركة التبغ سابقة لأوانها. ولكن -وبالأخصّ- ما الذي دفعها للحديث عن «تصرّف جنوني»؟ كان العرض يتضمّن نقطتين أخريين:

2) لم يكن مطروحا بتاتا، وضع كلمة طفل محلّ شك. وبما أنّ سجلّي الجنائي لا يحتوي على أيّ سوابق، يبدو أنّ مواجهة الضحية أمر لاغنى عنه لتحديد الوقائع تحديدا دقيقا.

3) يتعذّر الحكم في مثل هذه القضية، دون الأخذ بعين الاعتبار حالات زنا المحارم واعتداءات هتك الحياء التي يمكن أن أكون قد تعرّضت إليها خلال طفولتي. وتبعا لذلك، طالبت المحامية بإخضاعي إلى اختبار نفسيّ.

بقيت مندهشا قبل أن ألتفت إليها وأنا أهمهم:

-ولكن ليس الأمر على هذا النحو! لم يحدث شيء في دورة المياه!

إزاء نظرة محاميتي الواهنة، أدركت أن وضعي كان حرجا أكثر مما ظننت. فحتّى بالنسبة إلى الشخص المكلّف بالدفاع عنّي، يصعب التراجع في أقوال الصبيّة. لذا خيّرت الأستاذة باتاكي مسارًا دقيقًا يتضمّن على نحو ما قبول إدانتي. وأضافت بنبرة أرادتها مطمئنة:

-ثق بي!

كانت قاضية التحقيق تبدي باستمرار ابتسامة آكلة لحوم البشر:

-فعلا، كما ذكرت محاميتك، لا مجال إلى الاعتراض على أقوال طفل. واستجابة لطلبها، استدعيت الضّحية من أجل تأكيد اتهاماتها الخطيرة، وهي تقف في الغرفة المجاورة.

ابتلعت ريقها ثم نظرت إليّ بقسوة أشدّ:

-سأجعل أماندين الصغيرة تدخل، ولكن ليكن واضحا: ليس من حقك توجيه الكلام إليها إلاّ بطلب مني. فإثر الصدمة التي تعرّضت لها سيكون تحمّلها لحضورك شاقّا بما فيه الكفاية.

ما عساي أقول بعد الدخول بهذه الطريقة في لبّ الموضوع؟ لم تكن وجهة نظري تعني أحدًا، و لم يكن لأقوالي أيّ أهمّية. كنت أرفع بصري الساخط آليًا نحو الأطفال الرضّع ممتلئي الأجسام المعلّقين فوق رأس القاضية التي أعادت الكرّة هازئة:

-ممنوع اللّمس!

دخلت البُنيّة المكتب. وما كاد الوقت يسعفني لأتعرّف إليها، حتى شتمتني أمّها -لوليتا[1] على مشارف الشيخوخة في تنّورة من الجلد الصناعي الأسود وسترة قرمزية اللون- بنبرة اشمئزاز:

-أيها القميء، يجب تعذيب الأشخاص الذين على شاكلتك لما يفعلونه بالأطفال الصغار!

تركتها القاضية تتفوّه بهذا السباب وبتهديدات أخرى. وعندما انتهت من ذلك رأيت من المفيد أن أوضّح:

(1) لوليتا: رمز للمراهقة الجنسيّة، كرّسه الروائي الروسي فلاديمير نابوكوف، في روايته «لوليتا» وتداولته السينما الأمريكية، استعمله المؤلّف كناية عن التصابي.(المترجم).

-سيدتي، أنا لم ألمس ابنتك قط.

قاطعتني قاضية التحقيق بلهجة جافة:

-طلبت منك أن تصمت سيدي. قولي لي يا صغيرتي أماندين، هل هذا اسمك؟

هزّت الصبيّة رأسها دون النظر إليّ. كان وجهها إلى الأرض. ولقد دار التحقيق كلّه على هذا النحو، دون أن ترفع عينيها تجاهي.

-هل تعرّفت على هذا السيد، أماندين؟

لم تكن تجيب. نظرتُ إلى السّعلاة الجالسة إلى مكتبها؛ كان اللُّغدان[1] يتهدّلان من وجه تملؤه الشعيرات الدمويّة، وجه أعاد تشكّله فجأةً في ابتسامة حنون:

-صغيرتي أماندين، أعرف أنّه من العسير عليك التفكير في ما حصل. لذا أنا التي سأذكره وأنتِ ستقولين إن كان صحيحا أم لا. اتفقنا؟

-اتفقنا.

-هل كان بنطال هذا السيّد منزوعًا؟

-نعم، سيّدتي!

-هل ترك الباب مفتوحا؟

-نعم، سيّدتي!

-هل أخافك؟

-نعم، كان يصيح في وجهي. وكان لديه مفكّ براغ!

-هل لمسكِ؟

(1) زائدة من اللّحم بين الحنك وصفحة العنق. (المترجم).

كانت البنت الصغيرة دائمة النظر إلى الأرض. وبعد لحظات من التردّد، رفعت نظاراتها نحو أمها التي مرّرت يدها على كتفها وضمّت إليها رأسها الصغير:

-هيا، عزيزتي، يمكنك أن تقولي لها.

-نعم، سيّدتي، لقد لمسني.

-أعرف أن الأمر صعب جدا ولكن هل يمكنك أن تقولي لي أين لمسك؟

عاودت أماندين سؤال أمّها التي أصبحت أكثر تسلّطا وقد ظهر عليها نفاد الصبر بشكل ملحوظ:

-هيّا، قولي لها.

-نعم، سيدتي، بين ساقيّ.

عند هذه الكلمات، وبينما كانت لوليتا تضمّ إليها طفلتها بقوة أكبر، انفجرتُ مخاطبا تلك التي ظننتها محاميتي:

-لا يمكنني أن أسمح بمثل هذه الأقوال...

تدخّلت القاضية مقاطعة:

-طلبت منك أن تصمت، أعرف أنه يعسر عليك احترام طفل، ولكن أغلق فمك الآن! أشكرك، سيّدتي، وأنت أيضا صغيرتي أماندين. أعدك أنّ هذا السيّد لن يعاود إيذاءك أبدا.

لم يحدث تقريبا أي شيء آخر. فبعد رحيل أماندين وأمّها، أكّدت القاضية لمحاميتي أنه إزاء هذه الشهادة المؤلمة، يبدو لها ضروريا وضعي في حالة إيقاف مؤقت، واتّخاذ إجراءات تفتيش لمحلّ إقامتي.

وأضافت أنّ عملية تحرّ كانت تجري في الأثناء تتعلّق بجميع الأطفال الذين عادة ما يتردّدون على رواق الطابق الثاني بالحيّ الإداري. كانت أم أماندين تلمّح في شهادتها إلى أنّ آخرين يمكن أن يكونوا سقطوا ضحايا للملامساتي كتلك التي تشير إليها كوابيس ابنتها. لم تجرِ مارين باتاكي جوابا. دخل حرّاس لتكبيل يديّ واقتيادي إلى مركز الإيقاف. وبرؤيتي لحياتي تنهار بعنف في هذه الكارثة البشعة، بدأت أتخبّط، بينما اكتفت المحامية بالتّكرار:

-ثق بي. سأترافع في الوقت الحاضر على أساس هتك حياء بلا عنف ولا ملامسة. ربما يجب علينا أن نقبل بعلاج طبّي، لكننا سنناضل وسنخرج.

-قولي للطيفة إنني أحتاج إليها!

قلت هذه الجملة في ما يشبه الصراخ. وبمعصمين تكبّلهما حلقتان من المعدن البارد، كنت قد عبرت الباب بعدُ نحو وضع الأسير. بعد أيام قليلة وأنا رهن الإيقاف بسجن سان لوران، علمت بأمر كنية *الموت المباغت* التي تشير إلى الأستاذة مارين باتاكي في عالم روّاد السجن.

* * *

وحدها غريزة البقاء منعتني من الانهيار. موضوعيّا، كانت حالتي مروّعة: أن أتحوّل فورا من منزلة إطار سامٍ، ومثقّف غربي ميسور، وبالغ حرّ في حركته إلى وضعيّة مُدّعى عليه محبوس من قبل العدالة؛ أن أحرم فجأة من حقوقي الأوّلية خاضعا لتوقيت مضبوط ولمجموعة من القواعد، مجرّدا من ضوء النهار، ومهدّدا

بالعنف والإساءة إليّ من قِبل شركائي في الاعتقال؛ أن أرى نفسي أمام إفلاس محتمل كي أدفع أجور المحامين وتعويضات الضحايا... إنّها وضعية يفقد فيها البعض عقولهم أو يستسلمون للموت، لا سيما إذا وجدت نفسك، في صميم طبقة الخارجين عن القانون، مصنّفًا ضمن الفئة الأحقر لمجرّد أنّ ملفّك يذكر أفظع الآثام: *جريمة ضد الطفولة*. في هذه الحال ما من شكل من أشكال التعاطف يمكن أن يمارس لصالحك.

في خضمّ المحادثات المهذّبة، اعتقدت طويلا أنني أفضِّل المجرمين على رجال الشرطة والموقوفين على القضاة. يحملني انجذاب تلقائي نحو الخارجين عن القانون في هذا المجتمع القاسي... لذا كان من الواجب أن أجد نفسي هنا كي أدرك أن المساجين على درجة من الحقارة تضاهي ما عليه الإنسانية في مجملها؛ ذلك أنهم يؤسِّسون داخل السجون التراتبية الاجتماعية القاسية نفسها؛ وتَستنسخ أخلاقُهم المنحطّة الأخلاقَ السائدة، ولكن في صيغة بسيطة ووحشية؛ ويوظفون لحسابهم كل الفضائح الإعلامية التي تُمليها رغبات اليوم. وينتقمون بتفان من أولئك الذين حكم المجتمع بوضاعة مكانتهم، وكأنهم بذلك إنما يدفعون ضريبة على جرائمهم الشخصية.

بمجرّد دخولي إلى هذه المصيدة[1] لم أجد حتى الوقت كي أرثي لحالي، ذلك أنّ طاقتي كلّها قد امتصّها عمل آخر عاجل: اتّقاء شرّ انتقام الأوغاد بتجنّب ذكر سبب وجودي هنا، وهو أمر غير متيسّر

(1) اللفظ الذي أورده المؤلّف محمّل بدلالات ناشئة من معنيين في المعاجم هما: مصيدة الفئران و الفخ الذي ينصبه رجال الشرطة.(المترجم).

في مكان تُعلَن فيه الجرائم كما تُعرَض السيرة الذاتية خارجه... وتجاوزًا لتردّدي فقد تكفّل الحرّاس بإخبار الجميع، أو على الأقلّ هذا ما أفترضه، إذ وجدت نفسي منذ أوّل نزهة في ساحة السجن، منعزلا على الأرضية بينما كان نصف دزينة من المعتقلين يتهامسون وهم يحدجونني بنظرات شريرة. ثم تفرّقوا لصوت الصّفّارة، ولكن ما لبثوا أن مرّوا بجانبي هم أنفسهم واحدا تلو الآخر وهم يهمسون في أذني بعباراتهم الودية المدعومة بحركة صغيرة على الحنجرة قاطعة كأنها شفرة من فولاذ.

-سنسلخ جلدك أيها المغتصب القذر!

كان حريّا بي أن أجيب بأنني أنا نفسي ليس لديّ أيّ استلطاف لهذه الفئة من الناس. كان بوسعي أن أذكّر بأنني بريء وبأنّي أعتبر كذلك إلى حين محاكمتي. ولكن افتراض البراءة في السجن أقلّ شيوعا مما هو في أيّ مكان آخر. ولذا، فقد تواصلت سلسلة التهديدات إلى نهاية النّزهة مع برنامج يتحدّد أكثر فأكثر:

-تجنّب النوم إذا أردت أن تستيقظ!

الشخص الذي كان يوشوش في أذني بهذه الكلمات اللطيفة، كما سأُخبَر بذلك فيما بعد، قتل عشيق زوجته بِخبط رأسه في الأرض. وبدل أن يؤمّن دفاعه غير المؤكّد، كان يُسخّر طاقته لقضية جديدة في خدمة العدالة: الانتقام من عدوّ للطفولة. وما كاد الوقت يسعفني لأدرك تهديده حتّى تلقّيت لكمة خاطفة أصابت كليتي، بينما كان صوت آخر يتمتم:

-لا شفقة على مغتصبي الأطفال!

كان هذا المتكلم، قد حطّم بمضرب بيسبول شخصا أسند جسمه عرَضًا إلى سيارته في موقف للعربات. ويقضّي الضحية بقيّة حياته على كرسيّ متحرّك، أمّا المجرم، فقد اكتشف بفضلي للتوّ أفقًا أرحب: يكفيه أن يطهّر هذا السجن من بعض الحثالة الذين كنت أمثّل صورتهم المقرفة، بصفتي بورجوازيا أربعينيا يجذب الفتيات الصغيرات إلى دورات المياه. صرت في نهاية النزهة، أمشي خائفا وأنا ألقي حولي نظرات متوتّرة. كنت محتجَزا في باحة للاستجمام وسط غلمان قساة لن يتركوا لي فرصة للنجاة. أمّا الحرّاس فلا حياة لمن تنادي. هل كان ذلك بفعل الملل، واستحالة التدخل لأدنى شائبة؟ هل كان الأمر متعلّقا بتواطؤ سرِّيٍّ مع السجناء الآخرين الذين يشاركونهم هذه القيم وهذه التراتبيّة التي تلقي بي في أسفل درجات السلم؟

بعد العودة إلى الزنزانة استندت إلى الجدار مغرورق العينين. لطالما قلت لنفسي، إنه إيقاف مؤقت وإن الكابوس إلى انتهاء، ولكني بدأت أدرك أنني لن أحظى بأيّ فرصة للنجاة. ستنقضي أسابيع وربّما شهور قبل انتهاء التحقيق وإثبات براءتي. كان أملي الوحيد يتلخّص في تصميم لطيفة التي تسخّر طاقتها لإخراجي من السجن؛ ولكن لم يكن مسموحا لي برؤيتها كل يوم وكان يتعيّن عليّ الصمود في مثل هذه الظروف الكريهة... طبعا يمكن لحالي أن تكون أسوأ بكثير، فأحجز مع متوحّش يذيقني ألوان العذاب. لكن مما لا شك فيه أن المسؤولين عن مركز الاعتقال كانوا يفضّلون تفادي الوضعيات الخطرة التي تنغّص عليهم عيشهم فجعلوني أشارك هذه الزنزانة مع مجرم آخر ضد الطفولة، كفّر في نظرهم عن جميع سيّئاته. وبينما كنت

أنتحب حذو الجدار، كان باولو يتصفّح مجلة منوّعات فيها نصف عمود يمثّل ذروة مسيرته الاجتماعية. هو أيضا أربعيني؛ أصلع الرأس، ذو عينين ضبابيتين تغطيهما نظارات كسر زجاجها السميك أحد المعتقلين، يتكلم بصوت خجِل ويقضّي معظم الوقت وحيدا. (في المرّة الأخيرة التي خرج فيها للاستجمام، عاد بسنّ مكسورة) شعر باولو منذ الخامسة عشرة بميل جامح نحو الغلمان الصغار وأصبحت متعته أن يجعلهم يرون ذكره. ربما كان بالإمكان في قرية من قرى العهود السالفة التغاضي عن هذا الشذوذ البائس... بعد أوّل مرة سجن فيها باولو، تكرّر إقحامه، من منطلق وقائي، في دورة لا نهاية لها من المعالجة الدوائية، وإطلاق السراح المراقب، والإقامة الجبرية في المصحّات النفسية التي لم تمنعه من تكرار محاولاته.

منذ شهرين، خلع ملابسه أمام فيتنامي صغير يبلغ من العمر سبع سنوات ونصفا قبل أن يتركه يرحل، وقد جعله يقسم ألاّ يقول شيئا. لقد روى لي باولو هذه القصة بالتفصيل ولم أستطع أن أفهم الإثارة التي تمنحها له هذه النظرة الطفولية إلى أعضائه التناسلية، بل إني وجدت شيئا مرَضيًا في ميله نحو هذه الكائنات التي لم يمرّ وقت طويل على تشكّلها، الكائنات التي دمرت حياته بأتم ما في الكلمة من معنى. ولكن رغم تعاطفي لم أتقبّل حشري معه في الخانة نفسها وكأنّ إدانتي قد تأكدّت. علاوة على ذلك، كان هذا التقارب موضوع تسلية لدى المساجين الآخرين وهم ينظرون إلينا بوصفنا ثنائيا ويطلقون بين الحين والآخر صيحات في الرواق يقصدوننا بها تحيل على سجل التأنيث الماكر: («إذن، هل تتعاشران معا جيّدا، أيتها

المومستان؟) ومتى لم يمارسوا ضدنا عدالتهم الشعبية فهم يوجهون الأنظار إلينا: («انتباه، مغتصبان للأطفال محتجزان بالزنزانة 145»).

في صباح اليوم الثاني، قرّرت أن أتوجه إلى الحمّام. كان باولو يرفض الذهاب إلى هناك خوفا من التعرّض للضرب؛ كان يبعث في الزنزانة الموصدة رائحة كريهة، رغم اغتساله في حوضها. أما أنا فقد كنت أحافظ، إضافة إلى حسّ النظافة، على شيء من الثقة في دور الحرّاس المكلّفين بتأمين حمايتي. سرت إذن في طريقي دون أن أتخيّل على وجه الدقة ما كان ينتظرني. كنت محرجا قليلا لحظة نزع ثيابي ثم تقدمت في خجل مغمورا ببخار الماء الساخن، ويبدو أنّ المعلومة قد تفشّت. إذ لاحظت من جديد، وأنا أقترب من المجموعة، النظرات القاسية ونعوتا تسّاقط عليّ كأنها البصاق: «إنّه المغتصب. عليّ أن أشدّ حزامي...»

كانت الشتائم تقيم بيننا حاجزا من عار. وسرعان ما وجدت نفسي وحيدا في طرف قاعة الاستحمام تحت مِرَشّ يغمرني بالماء بينما راح المساجين الآخرون يغتسلون وقد تنحّوا جانبا. ومن حين لآخر كان الحارس يطلّ برأسه. وفجأةً، مع صوت ترقرق الماء على البلاط، ميّزت سلسلة جديدة من العبرات أكثر رقة، كانت موجّهة إليّ بوضوح:

-النزيل الجديد لديه أرداف جميلة.

-أرداف، طفل تقريبا.

-أمر عادي، أنت تعرف ذوقه!

تسارعت دقات قلبي. ورحت أبذل جهدي كي أحافظ على

مظهر لا مبال وأنا أدلك جسدي بالصابون، ولكنهم ظلّوا ينظرون إليّ جميعًا، وفي نبراتهم شيء من العنف والاستثارة:

-استدر أيها المغتصب حتى أرى ثقبك الصغير.

-من هنا، حبيبتي، أريد أن أتملّ ردفيك، أنا أيضا...

ولفرط الهلع الذي أصابني، ما عدت قادرا على الحركة. وحتّى أبلغ منفذ الخروج كان عليّ المرور أمامهم. وقد اختفى الحارس الآن، تماما. كانت يد أحد المساجين بين ساقيّ، وهم يطلقون تهديداتهم بصوت خفيض كي لا يثيروا الانتباه:

-أتحبّ أن نفعل بك ما تفعله بالبنات الصغيرات؟

في هذه اللحظة الحرجة، ارتفع صوت قويّ غمر الآخرين، صوت بقوة هزيم الرعد:

-دعوا هذا الرّجل وشأنه وإلاّ فإنّ أوّل من سيتعرّض له سيتعيّن عليه مواجهتي!

من ذا الذي يجرؤ على التكلّم هكذا؟ أيّ إله هبّ لنجدتي؟ لم يكن الحارس قد عاد ولكن عميقا من داخل قاعة الاستحمام بدأ شكل إنساني يتحرّك نحوي، بينما راح الآخرون يتنحّون ليفسحوا له المجال... بل لنقل إنّه وحش بشريّ: مائة وخمسون كيلوغراما من اللحم والشحم، مغطّاة بالشعر وفقاقيع الصابون، كان الرجل يتقدّم بطيئا خلال بخار الماء الحارق. التفتت إليه بعض الرؤوس وكلّها عدم فهم:

-ولكن، لولو، إنها جريمة ضد الطفولة!

-من أدراكم؟ المسوا شعرة واحدة من رأسه وسأتكفّل بكم!

يحدث في الحياة، أن تظهر، في أشدّ لحظات الوحدة يأسًا، حركة تضامن، موقف يكسر الجبن المحيط، موقف تفضّل الفئران أن تفرّ من أمامه. في هذه اللحظة انكسرت العشيرة البدائية التي كانت تحاصرني. كلّ طأطأ رأسه واستأنف اغتساله، بينما كانت كتلة جبل اللّحم الضّخمة تتقدّم. وجه بوذا مستدير، وذراعا سومو، وساقان مقوّستان على البلاط تقوّسا طفيفا. كانت شعرات جسمه المتداخلة وهي تلتمع بفعل الرغوة تشكّل على كامل الجسم غطاء نباتيا كثيفا، ووسط هذه الغابة، يبزغ عضو ذكر ضئيل. وبهدوءٍ مناصر للعدالة، كان يزن ثقل جسمه على إحدى رجليه ثم على الأخرى. ظلّ المعتقلون يحافظون على أوضاع رؤوسهم الخاضعة دون أن يجرؤوا على قول أيّ شيء البتة. وعندما أصبح على مقربة شديدة مني ثبّتّ نظري على هذا الحامي غير المنتظر بمزيج من الامتنان والثقة. فقط وجهه الطفولي الكبير رسم ابتسامة، ثمّ مدّ لولو ذراعه الضخمة وفرد يده الشَّعْراء السمينة، ووضعها على خصري معلنا للآخرين:

-إنه صديقي، ولا أنصحكم بأن تزعجوه.

بالنّسبة إلى شخص في مثل وضعيتي، يعتبر الاعتماد على شخصية قويّة مُهابة داخل الجماعة، ضمانا للاندماج المادي والمعنوي. وإنّنا لنجد هذا القانون نفسه في معظم السِّيَر السياسية أو الإدارية التي تتطلّب الالتقاء بالحامي المناسب في الوقت المناسب... ولكن، على عكس السياسة أو الإدارة، فإنّ عدم العثور على الحامي المناسب، هنا، كان سيفضي بي إلى عواقب وخيمة فعلا. فمن دون تدخل لولو كنت سأتعرّض للضرب ثم لمزيد من الضرب ثم سأنتهج نهج

الخضوع والانكفاء على الذات، وهي السِّمات المَرضية للكائنات التي تعاني من سوء المعاملة. لقد جنّبني لولو كلّ ذلك. فقد نظر إليّ منذ لقائنا في الحمّام بوصفي كائنا حسّاسا يستحق الإعجاب. ورغم ثقله وكلامه الفظّ، فإنه يخاطبني برقّة، حتى أنني صرت أمين سرّه.

في كل فسحة ينتظر أن ألحق به على انفراد. يروي لي، ونحن جالسان على الدّرج، بطولاته، ودور «الذراع الغليظة» الذي كان يلعبه في العلب الليلية قبل أن يقتل واحدا أصفر (هو لا يحبّ الصُّفر). يروي لي كلّ هذا كقصة خيالية؛ ومن حين إلى آخر تبرق جملة مودة لي:

-الآن، حتى البيض الأذكياء المحترمون مثلك، يضعونهم في السجن. إنه أمر لا يمكن أن أقبله...

وأحيانا، يُوشّي تحليله بحجة إضافية:

-كلّ ما يحدث لك، سببه العاهرات. ما كان ضروريا أبدا ترك السلطة في أيدي العاهرات.

وأنا أفكّر في والدة أماندين، أضطرّ إلى الإقرار بأنّ لولو ليس مخطئا تماما. عدا ذلك، فإن حسّي الخُلقي يثور عند سماع من يتلفّظ بهذه الجهالات العنصرية والجِنسانية دون ردّ فعل. ولكن ما باليد حيلة. لولو قويّ. لولو يخيف الجميع. حتى، حين لا يكون بجانبي، يكتفي الآخرون بابتسامة هازئة أدرك معناها، ذلك أنني أصبحت في نظرهم *امرأة لولو*. إنني في هذه الظروف الاجتماعية والمادّية والنفسية المؤقّتة، أنتظر يوما بعد يوم أخبارا من محاميتي وخاصّة من لطيفة التي تواصل في الخارج تحرّكاتها لإنقاذي.

## (8)

تقدّم نائب رئيس المؤسسة المكلّف بالاتّصالات بنفسه تحت المظلّة إلى غاية باب الليموزين. ورغم استعداده لهذا اللقاء، فقد بدا عليه التعجّب لاسترخاء ضيفه استرخاءً خارقًا، ولتلك اللامبالاة التي ميزت المحكوم عليه السابق الذي يمدّ إليه يده مبتسما. بعد أن رفع الأسود الطويل نظره نحو مبنى شركة التبغ العامة لاحظ وهو يهزّ رأسه:

-إنّه رائع جدّا.

كان ديزيري قد استبدل زيّ الاعتقال البرتقالي ببذلة رياضية من نوع جوتشي وزوجيْ حذاء رياضي من نوع نايك ذي نعل ثلاثية. ربما تُذكِّر سلسلة الذهب حول عنقه ببلطجيّ سابق، ولكن باستثناء هذا التفصيل الوحيد بدا سلوكه هادئا وغير مكترث. فقد ظلّ يهزّ رأسه بتؤدة وهو يبتسم دون أن يقول كلمة، فيما كان نائب الرئيس يفكر بإعجاب في أنّ هذه السّذاجة تخفي وراءها آلية فكرية من الدرجة الأولى كما بيّنت ذلك قضيّة السيجارة. على هذا النحو حلّلت وسائل الإعلام تصرّفات المحكوم عليه السابق الذي أصبح في أسابيع معدودة أحد أشهر رجال البلاد، وزعيم النضال ضد عقوبة الإعدام والكفاح من أجل حقوق المدخّنين ومن أجل الطفولة والزهور؛

وباختصار بطلَ الحياة وبطل غايات أخرى مختلفة كان قد جسّدها لحظة تحقيقه لرغبته الأخيرة. وعلى الرغم من كونه مُدانا إلى حين إعادة المحاكمة، لم يكن أحد يريد أن ينظر إلى هذا الرجل على أنه قاتل. إنّ نائب الرئيس نفسه يعتقد اعتقادا جازما، لمصلحة الشركة، في جدوى تمويل التحقيق المضاد والقيام بهجوم قضائي معاكس.

من ثمّة، شعُر بالضّيق وهو يرى الأستاذة باتاكي تنزل من باب السيارة الآخر بطلعة مدعوكة وشاحبة. استدارت المحامية من وراء العربة وأتت لتلتصق بموكّلها كأنها حارس شخصيّ. فمنذ تمتّع ديزيري جونسون بسراح مؤقّت وهي لا تفارقه قيد أنملة. لم يكن يعني المرأة الشابة إعداد الحملة الجزائية المضادة، بقدر ما كان يعنيها الاحتفاظ تحت وصايتها بمدّعى عليه تجني من ورائه جملة مداخيلها تقريبا. ولتتخلّص من مناورات شركة التبغ، سعت للحفاظ على علاقة مميزة به. وكان على الجميع أن يفهم: لا جدوى من الاتصال بديزيري دون وساطة من محاميته. ولتحقيق ذلك استفادت من ميوعة فتى الرّاستا الذي لم يكن يفرض أي شيء البتّة، ويكتفي ببعض الحركات الرمزية مثل إشارة النصر «V» يوجّهها إلى كاميرات التلفزيون المتجمّعة في طريقه. وإذ وجد هذه المرأة متشبّثة بتلابيبه (فهي تنام بشكل شبه دائم في بهو الفندق الذي ينزل فيه، في غرفة من صنف أربعة فصول على حساب شركة التبغ العامة) انتهى ديزيري إلى تقبّل حضورها على أنه أمر طبيعي... غير أنّ المحامية مارين باتاكي كانت ترى دورها ينزلق شيئا فشيئا نحو مهام ملحقة؛ صحافية أو سكرتيرة خاصة أو مدبّرة منزل، أو نحو مجموعة كاملة

من الوظائف الأخرى التي قبلتها عن طيب خاطر كي لا تفقد الدجاجة التي تبيض ذهبا.

بينما كان المصعد يرتفع إلى الطابق الخامس عشر، نظر ديزيري إلى نائب الرئيس مبتسما ابتسامة عريضة ثمّ أعاد الكرّة:

-الأمور عندكم رائعة إلى أبعد الحدود.

-شكرا، أعتقد أننا... فعلا، نشغل مرفقا لائقا بما يكفي. لقد أنجز هذا البناء سنة 1927.

-هل تعرف أين يمكنني أن أعثر على قليل من العشب؟

متفاجئا، تمتم المسؤول الكبير بسخرية:

-اعذرني، ولكن أعتقد أن هذا لم يدرج بعد ضمن تنويعاتنا...

تملاّه جونسون بتلك الابتسامة الجامدة التي كان من الممكن أن تبدو ابتسامة بلهاء لو لم يكن قد أخفى العبقرية الإستراتيجية المعترف بها اليوم من الجميع. في حين اتخذت مارين الملامح اللاّهية لامرأة على دراية بمخرجات علم النفس:

-يا له من طفل! إنه يذكّرني بابني الذي بلغ للتوّ اثني عشر عاما. هل تظن أنه يستفز؟ إنه يتسلّى!

دخلوا قاعة الاجتماعات حيث أُستُقبلت مارين أوّل مرّة. للحظةٍ، تأمّل ديزيري المدينةَ الواقعة تحت قدميه، وهو يقترب من الواجهات الزجاجية. ثم جلسوا في زاوية الاستقبال، وشرعوا يتحدثون عن هذه الحياة الجديدة وعن المحاكمة القادمة. تنحنح نائب المدير قبل أن ينطلق:

-لقد وضعنا خطّة إعلامية شاملة لرواية قصة خروجك من السجن. ستظهر في كبرى المجلات التلفزيونية. ربما عليك مقابلة ملحقينا الصحفيين...

قبل أن يجيب ديزيري، بيّنت مارين المسار الذي سيتّبع:

-سلموني البرنامج مفصّلا وسأهتم بكلّ شيء...

نظر مدير الاتصالات إلى جونسون بملامح مستفهمة. فأكّد المدّعى عليه بابتسامة غبطة:

-لا بأس، ستتولّى الأمر.

فتّش المحكوم عليه السابق جيوبه ثم أخرج علبة سجائر، وكان على أهبة لإشعال واحدة عندما تقاطع نظره مع نظر الإطار السامي الذي وضّح على استحياء:

-عفوا، هذا المكان لغير المدخنين.

لم يفعل شيئا وهو ينطق بهذه الكلمات، سوى أن ذكّر بالقانون. فجأةً، تمالك نفسه، متضايقًا، فقد كرّر لتوّه باستثناء أشياء قليلة، مشهد تنفيذ الإعدام الذي تم إيقافه! إنّ اتخاذ هذا الموقف لحظة استقبال الضيف يمكن أن ينمّ في ظاهره عن قِلّة ذوق مفرطة. وبعيدا عن الغضب، غطّى جونسون سحنته الحائرة:

-لا يحقّ لي التدخين هنا، عند مُصنِّع السجائر!

-المعذرة، سيدي، إنها قوانين العمل. ففي المباني العمومية، التدخين ممنوع؛ وموظفونا محترسون أكثر من غيرهم في هذه النقطة. وعليّ أن أعترف لك بأنني شخصيا... أتضايق من

دخان السجائر (نطق بهذه الكلمات وهو يسعل). ولكننا نملك فضاءات مخصصة للغرض، في الطرف الآخر من القاعة، خلف الباب الزجاجي، إذا كنت ترغب في ذلك.

وكالعادة لم يبد ديزيري جونسون أيّ اعتراض وهو يلتحق بفضاء التدخين مؤرجحا كتفيه في ارتخاء. فاستغل نائب الرئيس غيابه ليستدرج المحامية:

-ألا تعتقدين أنه... من الجيّد، في ظلّ هذه المحاكمة الجديدة، أن تكوني محاطة بفريق من الخبراء؟

كانت مارين تتوقّع هذا السؤال الممهّد لإقصائها المبرمج سلفا! ولقد لاحظت على كل حال أن مخاطبها يعاملها بحذر نظرا إلى السيطرة التي تمارسها على موكّلها. فكان لزاما عليها أن تظلّ صارمة:

-أشكرك، حقا، على هذا الاهتمام؛ ولكن ديزيري مصرّ على أن أظلّ متولّية زمام الأمور. وعليه، سأواصل قيادة المعركة كما قدتها بشيء من النجاح، أليس كذلك؟ وأرجو في ذلك تواصل دعمكم!

بدا المنسق الإداري مرتبكا:

-بالرغم من ذلك، لك أن تفوزي كل الفوز...

-أنا مستقلة. أحبّ إجراء التحقيقات وأحبّ العمل الميداني.

ندّت من الرجل إيماءة تدل على التفهّم. ثم تغضّن جبينه من جديد، وسأل:

-أليس من العسير إدارة جميع شؤونك دون مكتب سكرتارية

خصوصا مع حالة على درجة من الأهمية مثل حالة ديزيري، الأمر الذي يخشى معه معاناة موكليك؟

أرادت مارين أن تبيّن سيطرتها على الوضع:

-لهذا أنا لا أقبل سوى ملفات صغيرة لا أهمية لها... بمناسبة ذكر الملفات، هل تلقيت رسالتي الإلكترونيّة بشأن ذلك الرجل المسكين المتهم بارتكاب جريمة ضد الطفولة عقب تدخينه سيجارة في دورة مياه بالحي الإداري؟

-بصراحة لسنا معنيين. وسواء فعل هذا الرجل ذاك أم لم يفعل، فإننا لا نقترب من الجرائم ضد الطفولة. إنه أمر مقرف إلى أبعد الحدود.

أمّن ديزيري العائد من قاعة التدخين، على هذا الكلام كمن يعلم حقائق الأشياء:

-ممنوع المسّ بالأطفال، أنت على صواب! ممنوع المسّ بالحياة!

التفت مدير الاتصالات مبتسما، وقد أعجبته هذه الجملة الأخيرة. إنه يلتقي ثانية بديزيري العظيم ذاك الذي افتتن به عبر التلفزيون، ذاك الذي أثار زخما شعبيا هائلا، ديزيري معلّم الحكمة. وفي فورة الحماس، انتقل ذو الياقة البيضاء إلى الموضوع الموالي:

-قل لي ، صديقي... العزيز، بغض النظر عن الخطّة الإعلامية والمحاكمة الجديدة، هل من معركة، تحبّ اليوم أن نتحرّك من أجلها؟

كان جونسون قد استلقى على مقعده بثقة القوّادين المبتذلة. ثمّ

طلب بأدب:

-هل يمكنني الحصول على كأس؟ ويسكي أو أيّ شيء؟

-طبعا، سأطلبه لك بالهاتف حالا...

بمجرّد أن طلب المشروب، بدا فتى الراستا الطويل مركّزا لحظة من الزمن؛ ثم أدار نحو مدير الاتصالات وجها يعلوه اهتمام مفاجئ:

-اليوم أرى معركة وحيدة مهمّة، وهي بصراحة ليست معركتي. إنّها معركة رهائن أكاديمية الشهداء...

-بالطبع! استحسن مخاطباه.

كان نائب الرئيس يهزّ رأسه كما لو أنه لا وجود لنقاش محتمل. ثمّ سأل مرّة أخرى:

-ولكن... هل تعتقد في المقدرة على فعل شيء لهؤلاء المساكين؟

-لا أعرف، ولكن ما أعرفه هو أنه لا بدّ من النضال، ما أعرفه هو أنّ يوم 5 ماي قد مثّل علامة تحوّل فارقة، وأنه لا يمكن أن نبقى مكتوفي الأيدي...

-هو على صواب، -سارعت المحامية إلى التكرار-. لم يعد بالإمكان التفكير بالطريقة نفسها، منذ الخامس من ماي.

* * *

إنّ المطّلع على الصحف الصادرة ذلك اليوم الأربعاء 5 ماي، يخرج بانطباع مفاده أنّه يوم كئيب، يوم ينام فيه العالم، وتدور الأحداث فيه دورانا بطيئا. وللحفاظ على انتباه القرّاء، ذكّرت عديد العناوين في الصفحات الأولى بإطلاق السراح المرتقب لديزيري

جونسون، سراحا مشروطا تحصلت عليه لجنة المساندة. لكن ساد شعور بأن القضية بصدد الأفول في الوقت الذي كان فيه التهديد بالموت يتلاشى. ولقد لاحظت قلّة من القرّاء، في الصفحات الداخلية، هذا البيان المقتضب الذي نشرته إحدى وكالات الأنباء؛ بضعة أسطر لن تلبث أن تتصدّر الأخبار اليومية في القريب العاجل، بضعة أسطر جعلت من الأربعاء 5 ماي أحد تلك التواريخ التي يهتزّ لها التاريخ وتصيب جسمك بالقشعريرة:

> تبنّت الجماعة الإرهابية «ضمير جون واين» اختطاف ستة رهائن في منطقة الشرق الأوسط. وما يزال القلق يتعاظم منذ أيام عديدة، بعد اختفاء متعاونين أجانب مدنيين وعسكريين في الطريق إلى دمشق. وفي رسالة إلى القناة التليفزيونية Allah1، هدّدت فرقة الكومندوس غير المعروفة إلى غاية اليوم، بالشروع في إعدام الرهائن إذا لم تحصل على فدية قدرها 500 مليون دولار ستخصص لتمويل تنمية «إرهاب عالي الجودة».

للوهلة الأولى، بدا المطلب شبيها بدعابة، وكان إلى ذلك مبتذلا ابتذالا حزينا. فمنذ سنتين والجماعات المسلحة تتكاثر في المنطقة خدمة لأشدّ الغايات غموضًا وإبهامًا. حلّ البلطجيّة محلّ رجال الدين ليفرضوا كلّ شيء وأيّ شيء. وبدا كما لو أن القضية قد طواها النسيان بعد أن أعلنت الحكومات المعنية استحالة الاستسلام للابتزاز، ثم ما لبثت أن بلغت مداها يوم 10 ماي مساء عندما بثت القناة Allah1 تسجيل فيديو جديدا يظهر فيه الرهائن الستّ وقد امتلؤوا رعبا، وحولهم رجال ملثّمون يلوّحون بمسدسات وسيوف يمررون شفراتها على رقاب الأسرى. تقدّم قائد الكومندوس المعتمر

قبعة راعي البقر ليقرأ بيانه بنبرة حادة قاسية:

-«ردّا على الإهانة التي ما انفكّ يُلحقها بنا كثير من الإرهابيين الهواة وكثير من القتلة الذين لا يملكون عقيدة أو قانونا، فإننا نؤكّد أنّ خطف الرهائن فنّ من الفنون. ولأننا نؤمن بعملنا، ولأننا لم ننس جون واين، فإني أعلن الافتتاح الرسمي *لأكاديمية الشهداء*.»

تلفّظ بهذه العبارة بنبرة أعلى، بينما رفع شركاؤه السيوف والمسدسات فوق رؤوس الأسرى بانتصار وهم يتصايحون:

-«*أكاديمية الشهداء*»! «*أكاديمية الشهداء*»!

حينذاك انطلق التفسير المروّع للمشروع بإنجليزية ذات نبرة عربية قوية:

-«على امتداد ستة أشهر، سيتواجه الرهائن الستّ في منافسة تحت أعين كاميراتنا اليقظة، وعليهم أن يغنّوا ويرقصوا وينجزوا اختبارات. وسيبثّ هذا البرنامج على الأنترنت. وتستطيع جماهير العالم أجمع أن تصوّت للمترشّح الذي تختاره. وعليه، سيُعدَم في خاتمة كلّ شهر، المتباري الذي يتحصّل على أقلّ عدد من الأصوات، إلاّ إذا استجابت الحكومات الكافرة لمطالبنا.»

التفت إلى الرجال الأربعة والمرأتين المنكفئين على أنفسهم أرضا واختتم كلامه بالنبرة المشجّعة التي تصدر من مدير دورة تدريبية:

-«سيّداتي، سادتي، لنا أن نثبت لكم أنّ الإرهاب مهارة ودراية؛

ولكم أن تبرهنوا أنّ لكل ضحيّة فرصةً للنجاة بإجادة القتال. استعدّوا وركّزوا. الاختبارات ستنطلق يوم غد. حياتكم بين أيديكم. والفوز للأفضل!»

ولنا أن نتخيّل مشاعر الهلع التي انتشرت في المجتمعات الديمقراطية. ولقد عبّرت حكومات مجهولة الهويّة عن سخطها وهي ترى حياة الأبرياء ترتدّ لعبة للسفهاء. وبعد تعبيرها عن غضبها أعلنت أنه ستُتّخذ كل التدابير اللازمة لإنقاذ حياة الرهائن والقضاء على فرقة الكومندوس الإرهابية ووضع حدّ لأنشطتها. وتكلّمت ابنة جون واين لتعبّر عن عدم فهمها لهذا التقارب بين الكاوبوي صاحب الشعبية وبين هذه المسرحية الهابطة. ودخل رؤساء المؤسّسات التلفيزيونية الرئيسة في مزايدات معلنين عن صدمتهم للطريقة التي أخرجت بها برامج تسلية بريئة عن سياقها. وتحدّث مدير برامج إحدى قنوات تلفيزيون الواقع عن عملية تزييف لمنتج أصلي بل وحتى عن اغتصاب لحق تجاري. وعلى سبيل المقاومة، تجمّع المترشِّحون الشبّاب لمنوعة *ستار أكاديمي* حول بريتني الفائزة في العام الماضي وقد أمسك كلّ واحد منهم بيد صديقه ليغنّوا معا أغنية حب مهداة إلى الرهائن.

وحسب البلاغات الرسمية، كان لا بد من القيام بكل شيء حتى يُمنع بثّ *أكاديمية الشهداء* على الأنترنت. ولكنّ صعوبة ممارسة رقابة من هذا النوع لم تلبث أن ظهرت على السطح. فجيلا بعد جيل، ونظاما إثر نظام مضاد، صارت الشبكة العالمية فوضوية تمامًا. ولقد أدّى تضاعف الاتصالات المتبادلة، وتضاعف المُخزِّنين

والمواقع المبثوثة في جميع أنحاء الكوكب، إلى تشابك الواب تشابكا لا حدّ له. فبدا مستحيلا، حتى بالنسبة إلى أشدّ الخبراء ضبطا ودقة، اقتفاء أثر مسار شديد التقلّب ومستمر التحوير يسمح لفيلم الرهائن بالانتشار على الشبكة. وهكذا تجاوزت الحلقة الأولى من *أكاديمية الشهداء* مقصّ الرقابة دون صعوبة تذكر. والقنوات التلفزية الرئيسة التي كانت في البداية رهينة متطلّباتها الأخلاقية، لم تستطع أن تصمد طويلا أمام جاذبية معدّلات المشاهدة، فقررت بموافقة السّلط العمومية أن تبثّ بضعة مشاهد «من باب الانشغال بالمعلومة»، وتحذف أشدّ الصور إيلاما وقسوة، فلا يستطيع الوصول إليها سوى مُستعملي الواب.

بالنّسبة إلى الاختبار الأول في هذه المنافسة المَرضيّة، نظّم مريدو جون واين منافسة في لعبة الكاراووكي. فكان كل متنافِس مطالبا باختيار أغنية من القائمة التي وفّرها الإرهابيون، وهي مكوّنة أساسا من الأغاني الأمريكية الرائجة. وعليه بعد ذلك أن يؤدّيها أمام الكاميرا والمصدح في يده. كان الركح المعدّ بشكل مرتجل في موقع الاعتقال، محدّدا باختزال بستار خلفي يحمل الألوان النجمية للميليشيا المسلحة. وكان ثمّة نور كاشف يضيء الحلبة بينما استقرّ أفراد الفرقة والمسدّسات في أيديهم على الكراسي متقمّصين دور الجمهور. في هذه الظروف ظهر الرهينة-المتباري الأوّل: ممرّضة كورية تؤدّي مهمّة إنسانية، لا تكاد تعرف أيّا من الأغاني المقترحة باستثناء أغنية الديسكو الناجحة «*سأبقى على قيد الحياة*»[1]، قطعة

(1) أغنية غلوريا غاينور (1978) الشهيرة I Will Survive.(المترجم).

موافقة لمقتضى الحال شرعت في تأديتها بشجاعة، مغمضة العينين، دون حراك تقريبا. نبرتها الآسيوية الصغيرة الحادّة تحرّف الكلمات بينما تحاول هي إسناد لازمة الأغنية بحركة موقَّعة من حَقْوَيْها. وفي منتصف الأغنية اعترت المتبارية نوبة رعب ثم أجهشت بالبكاء وسط صفير الكاوبوي وهتافاتهم، قبل أن تترك مكانها للمتباري الموالي.

رغم تواضع الإمكانات المادية، تمّ كل شيء بطريقة توهم بأننا حيال برنامج تلفزيوني. فإثر كل أداء، يعبّر الرهائن المستجوبون عن انطباعاتهم في ظلّ إضاءة حميمة. كان الإرهابيون يشرفون بأنفسهم على اللّعبة؛ فيرى المشاهد أقنعة الشاش والأيدي المرتدية للقفازات وهي تمدّ المصدح إلى الضحية التي تهذي مرتعشة ببضع كلمات.

أبدى المتباري الثاني وهو صحافي ألماني، وثوقا أكبر. فإثر أدائه لأغنية «عشقني برِقَّة»[1] باهتزاز صوتي جميل، أطلق نداءً احتفاليًا مهيبا مُوجَّهًا إلى المشاهدين كي يصوّتوا له باسم حرية الصحافة. أمّا أسوأ المتبارين فقد كان بلا ريب الكندي مدير قسم المبيعات البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما، وهو مطلّق، قدم إلى محرقة الشرق الأوسط طمعا في جمع ثروة بفتحه مغازات لبيع الكحول. في البداية ألقي عليه القبض من قبل جماعة من جماعات الإسلام السياسي ثم وقع الإفراج عنه في عملية مقايضة مقابل قطعة كلاشينكوف، لتسترجعه جماعة «ضمير جون واين». كان عاجزا عن بذل أدنى مجهود لأداء أغنية إيقاعية، وغير واع تمام الوعي بخطورة الوضع. كان همّه الوحيد البيت الذي اشتراه بواسطة قرض بنكي وصحة

---

(1) أغنية ملك الروك الأمريكي ألفيس بريسلي love Me Tender. (المترجم).

كلبه. منذ الأسبوع الأول انفصل متباريان عن المجموعة: كيفن ذو السبعة عشر عاما، لأنه كان الأصغر سنا ويجد متعة بريئة في الترنم بالأغاني الناجحة التي يحفظها عن ظهر قلب وكأنه نجم من نجوم الغناء؛ وفرانسواز وهي عجوز مسيحية في الخامسة والستين، لأنها كانت تدندن من أجل الأطفال بأناشيد تدمع لها عيون مشاهدي العالم أجمع. ولقد أردفت قائلة إنه إذا كان على أحد أن يموت فلا بدّ من أن تكون هي الأولى بالنظر إلى سنّها.

إثر كلّ عملية بثّ لمقطع من برنامج *أكاديمية الشهداء*، كان مقدّم النشرة الإخبارية يدعو المشاهدين إلى عدم المساهمة في التصويت كي لا يساندوا ابتزاز الخاطفين المقيت. وتعالت عديد الأصوات في الراديو والتلفيزيون وفي الصحف، مرارا وتكرارا لتبيّن دناءة المشاركة. وفي نهاية الأسبوع، ارتفعت حدّة التوتّر عندما أعلنت قناة Allah 1عن نتائج مسابقة الكاراووكي. كان قائد فرقة الكومندوس المعتمر على الدوام قبّعة الويستيرن، يحضن بذراعه اليسرى المتباري السادس الفائز في المنافسة: طباخ كويتي دندن بأغنية «*آلة الجنس*»[1] وهو ينخر نخير رجل قد اعترته حالة من الشبق العارم. وعلى الجانب الآخر، كانت الممرّضة الكورية المنهزمة في هذا الشوط الأول، مركّعة أرضا، مطأطأة الرأس أمارة على الخضوع. كانت الجماهير الغربية والآسيوية -كما سيُفهم لاحقا من التحاليل-، قد اتّبعت ما أمَرت به حكوماتها المطالِبة بعدم التصويت. وفي المقابل، سارع روّاد الأنترنت في البلدان العربية إلى أجهزتهم، فانتخبوا المتباري الوحيد

(1) Sex Machine للمغني الأمريكي جيمس براون. (المترجم).

من أبناء ديانتهم وأقصوا هذه المرأة التي هي أدنى قيمة من جمل. ولم يحتج الرأي العام الغربي إلى أكثر من هذا حتى يستفيق وحتى يدفع مدٌّ من التضامن الوطني في كل بلد نحو التصويت بكثافة لصالح المتباري الذي يخصّه، كما يحدث في المنافسات الرياضية. كان كل شوط يمتدّ لشهر ويتضمّن أربع منافسات. وقد بقيت ثلاثة أسابيع تفصلنا عن عملية الإعدام الأولى. فهل يمكننا أن نقبل لأيّ مبدإ كان، أن يكون الكويتي بالضرورة هو الناجي الوحيد من هذه المقتلة المبرمجة؟ أُعطيت إشارة المقاومة من ديزيري جونسون خلال برنامج المجلّة التلفزية الذي استقبله ليروي قصة خروجه من السجن. وفي البلاتوه قامت مجموعة من الأطفال بإهداء المحكوم عليه السابق باقة من زهور البنفسج إحالة على الزهرات التي قطفها قبل تدخين سيجارته الأخيرة. فتناول المصدح وأطلق نداءه، وهو محاط بهم، من أجل رهائن *أكاديمية الشهداء*:

«جميع المشاهدين يعرفون أني أحترم الحياة. وبفضل مساندتهم تمكّنت من الخروج من السجن. ولكن اليوم هناك حيوات أخرى في خطر. وعلينا أن نساندها عبر التصويت. صوّتوا لمن تشاؤون، ولكن صوِّتوا. وحتّى إذا كانت فرص النجاة غير متساوية، فإنّ كل صوت تبعثون به -لهذا أو لذاك- سيكون نداءكم الشخصي من أجل الحياة.»

خلّفت هذه الرسالة تحريرا حقيقيا للضمائر. ومنذ الأسبوع الثاني شرع كثير من المواطنين في متابعة حلقات *أكاديمية الشهداء* على حواسيبهم بصورة علنية وهم يفاضلون بين هذا وذاك من المتبارين.

فانحاز طلاّب *ستار أكاديمي* رسميا إلى كيفن: «هو ليس أفضل من الآخرين، لكنّه الأصغر سنّا وله الحقّ في هذه الحياة المنفتحة أمامه.» بينما عكست جمعية من المتقاعدين الآية وأطلقت عريضتها الخاصة مطالبة بإنقاذ فرانسواز «لأنها الأكبر سنّا، ولأنّ إيثارها هزّ العالم، ولأن مجتمعنا لا يمكنه أن يحرم نفسه من مثل هذا المعدن الإنساني الرفيع».

ابتدأ الأسبوع الثالث باختبار ضخم، على المتبارين الستة أن يجيبوا خلاله عن أسئلة ثقافية. بدا الرهائن على درجة كبيرة من الهلع أمام الكاميرا؛ ولكنّهم في العالم الحر، كانوا قد تحوّلوا إلى نجوم، تلمّع وسائل الإعلام صورهم؛ وتجمع مجلات المشاهير عن كل واحد منهم أسرارا وصورا شخصية. وكادت *أكاديمية الشهداء* تصبح أحبّ الألعاب الجماهيرية لولا ما تمّ تداوله في مفتتح الأسبوع الرابع، من أنّ أحد المتبارين سيُذبَح، إلا إذا حصلت معجزة في موفّى الأيام الثمانية القادمة.

## (9)

منذ عشرين دقيقة والعربةُ الزنزانةُ تتحرك على المزلق في زحمة السير بشارع النصر. جالسا بين عوْنين، ألمح المارّة من وراء الزجاج الوقائي، يعودون من العمل، يترقّبون الضوء الأحمر وقد بدوا راضين عن إقامتهم في هذه المدينة المثقلة بالتاريخ، وإن كان الحاضر يتطلّب شيئا من التأقلم. كان كثير منهم يُغَشُّون وجوههم بالمناديل؛ بينما اقتنى آخرون أقنعة تُباع على الرصيف بأورولار واحد شبيهة بمصافي القهوة الورقيّة تُشدّ الواحدة منها إلى الأنف والفم بواسطة رباط مطّاطي. وكان ثمّة مُلْصَقة هائلة تغطّي واجهة مبنى البلدية مطلّة على هذا الاندفاع البشريّ المحتشِد لتعلن عن الحدث الذي يمكن لجميع المواطنين المشاركة فيه إلى غاية يوم الاثنين:

«نهاية الأسبوع الخامسة للهواء النقيّ»

أذكر أنني أنجزت، حين كنت موظفا، دراسة تحليلية بفضل الأرقام السرّيّة التي وفّرها مركز مراقبة الأضرار البيئية. وكان من نتائجها الغريبة أنّه على امتداد نهاية الأسبوع، -عندما يتسكّع الفريق البلدي بين الأحياء احتفالا «بالمدينة التي تتنفس»-، تتضاعف درجة الأوزون والغاز الكربوني بنسبة 1.5 في المتوسط مقارنة بمعدلات بقيّة السنة (إذ تتجاوز هذه النسبةُ الحد الأقصى اللائق صحيّا).

ولتسجيل الحدث، قرّر قاضينا الأول -بطبيعة الحال- منع الجولان في عَشَرةٍ من الشوارع والطرق السريعة، ما أجبر العربات على أن تتراص في ازدحام مروري وحشي في كلّ مكان عدا هذه الشوارع العشَرة. كان بالإمكان حظر حركة المرور في الأمكنة الأخرى؛ لكن اكتُفِيَ بـ«عدم النصح بها». وبالتالي لم يحدث هذا الإرشاد أيّ تأثير في المعنيّين بالأمر، لا سيّما سكان الأحواز الذين يستعملون عرباتهم تحديدا... لحضور احتفالات أيام الهواء!

على الأرصفة وعلى قوارع ما أُخْلِيَ من الطرقات، تُبذَل قصارى الجهود في عدد من الأنشطة التحسيسية الموجّهة إلى المتساكنين بروح مفعمة بالمرح. أتفحّص برنامجهم المرقّم في وثيقة فنية تمهيدية:

1/ إنشاء متنزّه للدرّاجات والخبّابات وبكرات التزلج في مفترقات الطرق.

2/ استقبال المتساكنين في «مقاهي الأوكسيجين»، حيث يكتشف المستهلك وثائقيات عن الهواء ومكوّناته؛ وباستطاعته أيضا أن يتعلّم قراءة نسب التلوّث وتحليلها.

3/ إطلاق الأطفال في كلّ ساعة، بالونات من المطاط الرقيق، متعدّدة الألوان استُعمل في نفخها الهواء النقيّ.

نقاطٌ تبِعَتْها أخرى نسيتُها، تتتالى إلى غاية تجمّع الاختتام مساءَ الأحد، حين يُلقي العمدة خطابه الكبير المألوف عن الهواء والحياة.

تؤدّي، إذن، عمليات غلق الشوارع خلال نهاية الأسبوع، إلى زيادة كبرى في التلوّث. ولكنّ احتفاليات الهواء تفتح المجال على

امتداد السنة لتفاقم تلوّث الأجواء، بما أنّ اللقاءات المنظّمة خلال نهاية أسبوع ما، تسمح للبلدية ولوسائل الإعلام بتجاهل الموضوع ابتداء من يوم الاثنين الموالي. وهكذا بعد أن يسجّل الجميع انخراطهم في مكافحة تدهور شروط الحياة على الكوكب، يمكنهم العودة إلى مشاغل أخرى، مثل طوارئ الإصلاح الاقتصادي، والمؤشرات الإيجابية لإنتاج السيارات، و«الأخبار الجيّدة» القادمة من آسيا حيث ينمو الاستهلاك بواقع نقطتين. صحيح أنه من الممكن ربط تفاقم التّدهور البيئي بالإصلاح الاقتصادي وإنتاج السيارات والنموّ بواقع نقطتين في البلدان الآسيوية؛ ولكنّ القاعدة هي البقاء في حالة تفاؤل؛ الاستبشار من جهة والقلق باعتدال واتّزان وشعور بالمسؤولية من جهة أخرى.

لو فكّرتُ مليّا، لانتبهت إلى أنّه ما عاد يتملّكني الحنين وأنا أعود إلى هذه المنطقة. يبدو أن كلّ ما أحببتُه في هذه المدينة حين دخلتُها أوّل مرّة، قد اختفى اليوم وحلّت محلّه مغازاتُ الملابسِ الجاهزة. فكلّ ما كان من دكاكين الألبان والسمّاكين وورشات الحرفيّين، وحانات الليل ومطاعم الصبح، والطرقات المسوّدة، ودكاكين الخردة المغبرّة وقاعات سينما الحيّ... أكاد لا أرى في مكانها إلاّ محلاّت الملابس ومحلاّت الملابس ومحلاّت الملابس. تصفّف المدينة في فخر أشدّ الاختصاصات ابتذالا في ما يمكن أن نراه على كوكبنا من أدناه إلى أقصاه: مطاعم الأكلات السريعة للفقراء والأشدّ فقرا (الأكلة السريعة المرتدية قناع الطبخ التقليدي)؛ أمّا نسق الحياة فخاضع كليّا لنهايات الأسبوع ومواقيت العمل: غلق عام للحانات بعد منتصف

الليل؛ منع للتدخين في كل مكان؛ تعاظم لحقوق الطفل في كل مكان (أمام المدرسة القريبة من بيتي، تمّ تركيز ما لا يقل عن ثمانية أضواء حمراء في هذا المفترق الصغير الخالي من السيارات). باختصار، إنّه الرخاء الحذِر لبلدة ريفية أُلحِقت عسفا بمدينة تظن نفسها إحدى عواصم الدنيا. أرقب ذلك من زنزانتي المتنقّلة قائلا في نفسي إنني في الأصل لا أخسر شيئا ذا بال، كلّ ما عليّ هو أن أتحلّى بالشجاعة.

حسب ما فهمت، ستعرف نهاية الأسبوع الخامسة للهواء النقي مزيدا من التردّي في حركة السير جراء المظاهرة المنتظرة بساحة الجمهورية لفائدة كيفن من *أكاديمية الشهداء*. وتخشى وسائل الإعلام وقوع مصادمات مع موكب المتقاعدين الذين يريدون إنقاذ حياة فرانسواز وموكب الصحافيين المؤيّد لأولوية المحقّق الصحفي الألماني... ويحظى مؤيدو كيفن مع ذلك، بحليف من الطراز الأوّل، هو ديزيري جونسون الذي سيسير في مقدّمة المتظاهرين. حسب رأيه، من المهم قبل كل شيء، «إنقاذ الشباب الذي يمثّل الحياة مستقبلا». لقد أصبح بشكل ما منذ إطلاق سراحه، نبيًّا تُعلَّقُ صُوَرُهُ على جدران المدينة. حتى الحارسان الجالسان في عربة السّجن -أحدهما على يميني والآخر على يساري- يُعتبران من مؤيّديه. منذ قليل، كان أحدثهما سنّا وهو أندونيسي ذو جمجمة حليقة، يقول لزميلته وهي تشيلية طويلة القامة تلوك علكة:

-حقا لقد شعرت أنني أفضل عندما خطّ بالزهور هذه الكلمات: «تحيا الحياة.» يا لها من قوة إذ تصدر عن رجل في طريقه إلى الموت!

-أنا أرفض أن أعتقد أن ديزيري قد قتل شرطيا. فمجرّد ابتسامة منه تكفي لندرك أنه يحترم الحياة... هو ليس مثلك أيها الوغد!
أضافت الحارسة وهي تهمزني بمرفقها مبتسمة ابتسامة شبه ودودة.

كان بإمكاني أن أصمت ولكني تكلمت، وكأنني أستعدّ لجلسة المحاكمة القادمة:

-على الأقل، سمحت لنا قضيّته بالتفكير مجدّدًا في الحق في التدخين داخل هذه البلاد.

-هذا ما أجد صعوبة في تمثّله! -ردّ الأندونيسي-. كيف له أن يدافع في الوقت ذاته عن الحق في الحياة والحقّ في السيجارة؟

-الحق في الحياة، -أجبتُ-، هو أيضا الحقّ في تذوّق مُتع خطِرة. ولكن هناك نقطة أختلف فيها مع جونسون...

-حقا؟ هل لنا أن نعلم ما هي؟ سألت الحارسة التشيلية بهذه الألفة التي تقرّب أحيانا الحُرّاس من المساجين.

-نعم، أخالفه كل المخالفة حين يؤكّد على أنه من الأفضل قتل رجل في الخمسين على قتل شيخ أو امرأة أو طفل.

وإذ بالابتسامة تتحوّل إلى تكشيرة:

-لا أستغرب تعرّض شاذّ مثلك للضعفاء والأبرياء!

-كلاّ، إن هي إلاّ مسألة وجاهة رأي. بالنسبة إليّ، الأطفال كائنات غير مكتملة، ذات ردود فعل مختزلة جدّا؛ تفكيرها منحصر في الأكل والبكاء والهيمنة بطريقة شبه آليّة. أمّا

العجائز فالموت في نظرهم أمرٌ حميم، ينتظرون أن يلقوا فيه السكينة والسلام. ولندع الخوض في موضوع النساء، لقد حصلن على المساواة ولم أعد أرى ما باسمه يمكن أن يُمنحن أيّ نوع من أنواع الامتيازات... أنا أرى أنّ الرجل الكهل، رجل الأربعين أو الخمسين، هو أكثر من يستحقّ المساندة، بسبب الطريقة التي يزدريه بها الجميع. إنه لا يزال يحبّ الحياة، ولكنّه يشعر بأنّ المنيّة تقترب؛ يظنّ، بما لديه من ملكاتٍ ذهنيّة، أنه في أعلى درجات الاقتدار. ولكنّ رئيسه في العمل ما ينفكّ يفكّر في التخلّص منه. في كلّ مكان، ثمّة أشخاص أكثر يفاعة ينتظرون الحلول محلّه. زوجته السابقة تعتبره مزعجا ثقيل الظل لا يصلح إلا لدفع نفقات الطعام. أبناؤه فلذة كبده، يجدونه متخلّفا تماما عن العصر. أما سكرتيرته، فتترصّد أدنى ابتسامة جانبية لتتهمه «بالتحرّش الجنسيّ» وتجعله يدفع الثمن... في حياته كلّ شيء قد بلغ أوجه وكل شيء بصدد الانهيار. إنني لا أرى رمزا من رموز المجتمع الحديث أشدّ هشاشة منه.

-لذلك أنت تميل إلى الإساءة إلى الأطفال؟

-لم يحدث قط أن قصدت الإساءة إليهم. أنا أتجاهلهم. لا شيء فيهم يجذبني. إنهم أجنّة، لا يكادون يستشعرون ثراء اللّغة، وقوة اللّعب الاجتماعي، ومباهج الحب وآلامه. انظروا إلى الأطفال المرضى الذين يموتون وهم يواسون آباءهم، برضا من لم يعرفوا الحياة بعد. ليس الموت في نظرهم سوى عبور لطيف، لا ملامح له تقريبا. بينما هو بالنسبة إلى كهل في عنفوان

العمر، هلعٌ على شفا الهاوية وكثافةُ حنين بلا نهاية. أظنّ، تبعا لكلّ ذلك، أنه إذا كان لابد في مطلق الأحوال من إجراء مثل هذا الاختيار، فسيكون من الأفضل إنسانيا، قتل طفل صغير -بل الأفضل لو كان رضيعا- عوض قتل رجل ناضج.

بهذه الكلمات ، كنت أوقّع إدانتي مرة أخرى. ومرة أخرى، بدا أنّ اللامبالاة التي أتعامل بها مع الأطفال قد أوّلت بشكل شاذّ، -من الذهنين المتبلّدين لحارسيّ- على أنّها انجذاب محموم للفتيات الصغيرات! وهذا ما يبدو عليه الأمر لدى حارِسيَّ. إنّ تبليغ المنطق الخاص لحالتي يبدو أمرا مستحيلا؛ فالحساسية السائدة ترفض تقبّل براءتي حتى وإن بسط العقل الحجة.

استطاعت لطيفة، هي أيضا، أن تلاحظ ذلك خلال موعد مع العمدة طالبت به منذ أسابيع عديدة، وكان مكتبه في كلّ مرّة يفيدها بما يدلّ على الرفض، إنها شهادة على اللامبالاة التامة بهذا الماضي القريب أيّام كان الفريق البلدي يقدّر مشورتي. لم يبق من كل هذا سوى الامتناع في برود عن التحدّث عن مجرم *ضدّ الطفولة*، ونبرة الاستنكار في كلام السكرتيرات، وكأن جرمي قد أدّى إلى المسّ بصورة المدينة كلها. مع ذلك لم يفتّ شيء في عضد لطيفة، ولا حتّى هذا الأمر الخسيس بالتفتيش الذي عدت بموجبه إلى بيتي مكبّل اليدين؛ كان ساركو يضطرب بين يديّ مثل بائس، بينما يجول أعوان البوليس في منزلي بحثا عن صور أو أشرطة أو آثار تقصير ما. لم يجدوا شيئا ولكنّي عدت إلى السجن.

ولما كانت لطيفة مقتنعة بأنّ سندا عالي الرتبة يمكن أن ينقذني،

فقد صمّمت على إثبات براءتي للعمدة. وكي تبلغ غايتها، انتهت إلى الاتّصال به هاتفيا مستخدمة اسمها الصحفي المستعار واقترحت «مقابلة كبرى» لفائدة مجلّة نسوية، ففُتحت الأبواب فورا. وبعد ثلاثة أيام حظيت بلقاء مع صديق النساء الذي قدِم إلى الصالون لاستقبالها بنفسه ورجاها أن تتبعه إلى مكتبه.

وتجنبا لإثارة الريبة، أخرجت لطيفة مفكّرتها وبدأت تطرح بعض الأسئلة العامّة. بعين مبتهجة، ولهجة تُسرّ إسرارا، وخصلة من شعر رمادي تغطي الجبين وتطبعه بطابع فنّي، بدا العمدة سعيدا للإفضاء بما في داخله والبوح ببعض أسرار مسيرته السياسية (الشرف، والصرامة، وعدم الجري وراء المال لمصلحة شخصية، وخصوصا «الاهتمام الحقيقيّ بالناس»). في ظرف خمس عشرة دقيقة، وفي مناخ من الصداقة والثقة، طرحت صاحبتي أخيرا السؤال الذي اضطرمت له شفتاها:

–حسنا سيدي العمدة، بودّي العودة إلى القضية المؤسفة الخاصة بهذا «المستشار الفني» الذي سُجن مؤخّرا...

وحتّى قبل أن تنهي طرح سؤالها، اتّخذ رئيسي السابق هيئةً من وقار معبّرا عن ذلك الرأي القسريّ الذي كثيرا ما يستدعيه المقام:

–يا للفظاعة، يا للقذارة! يُفعل هذا ببنت صغيرة، في عقر دارنا، إنني أعتبر هذه القضية إخفاقا شخصيا. هل تعلمين أنه وفق فرقة حماية الأحداث، قد يكون هناك أربعة عشر طفلا آخرين وقعوا ضحايا الملامسة؟ لقد رفعت المدينة شكوى في الغرض وسأفعل ما بوسعي حتّى لا يفلت هذا الشّخص من العقاب.

-إذ أتحدّث عن «قضية مؤسفة» فإني أعتقد سيدي العمدة... أنّه ما من دليل قاطع ضدّ هذا المتهم الذي دُمّرت حياته جرّاء جريمة ينكرها جملة وتفصيلا.

-المجرمون، دائما ما ينكرون! هل يجب تذكيرك بأنّ هذا الشخص دخّن سيجارة داخل المقرّات معرّضا صحّة الأطفال للخطر؟ هذا ينبئ بالكثير عن طريقته في التفكير!

-ولكن هذه حجة ضعيفة ودليل هزيل!

فجأة، فهم العمدة أنّ لطيفة تدافع عن قضيتي فتغيّرت لهجة الحديث. وكي لا يخاطر بحواره لفائدة المجلّة النّسوية، حرص على أن يفصل بين الأمور:

-اسمعي يا سيدتي، لا أعرف لِمَ تهتمّين لأمر هذا الشخص، ولكنني سأحيطك علما برأيي فيه: طالما سيظلّ هذا الحديث محصورا بيننا وخارجا عن فحوى لقائنا الصحفي...

وعلى حدّ ما أخبرتْني به في ردهة السجن، شعرت لطيفة بعدوانية في صوته وهو يقول حرفيا:

-هذا الرجل عمل هنا أعواما عدّة. أعرفه وأعلم أنه شاذّ! سأضرب لك مثلا: حين كنت أجهد نفسي كي أنقّي الهواء في طرقاتنا، وأعيد المدينة إلى أهلها، كان هذا الشخص يتجسّس ويجمع تحاليل مشكّكة تسعى إلى إثبات أنّ أجواء المدينة مسمومة، بأتمّ معنى الكلمة.

-ربما فعل ذلك ليسدي لك خدمة.

-هو ذاك! أنا أفضّل أن تسدى لي الخدمة من خلال التأكيد على الجوانب الجيّدة في عملي! وثمّة أمر آخر أيضا: حين كلّفت نفسي عناء تحويل نصف الحيّ الإداري إلى محاضن؛ وعندما هدمت شقق السكن الوظيفي؛ وبنيت قاعات جديدة؛ عندما هيّأت فضاءات للرضّع و فضاءات للشبيبة (من يسمع كلام العمدة يظن أنه كان يفعل كل شيء بنفسه مستخدما صندوق أدواته الخاص)... باختصار، عندما أنجزتُ هذه الأشغال من أجل الصالح العام، لم يجد هذا السيّد -وهو ليس غبيًّا، علاوة على كل ما ذكرت!- أفضل من اللّحاق بأقلّية من الموظّفين تزعم أنها متضايقة في عملها من وجود الأطفال. هل سمعتِ جيّدا: **متضايقين من وجود الأطفال**[1]... عندما تصل الأمور إلى هذا الحدّ، فهذا يعني أن لا شيء يجري على ما يرام. لقد قيل لي زيادة على ذلك، إنه يعنّ له أن يشتم الصّغار في الممرّات. وعليه، أصبحتُ أعتبر هذا الشخص عدوّا ضمن فريقي الخاصّ؛ وهو أمر لا أستطيع تقبّله بسهولة.

-وإذا أكّدت لك أنّه بريء!

مع هذه الكلمات اتّخذ ملامح المتضايق وأشاح بيده كمن يستبعد هذه الفرضية:

-سيّدتي، إنّ كلام طفل على المحكّ! وهدفي أن يُمنح الطفلُ الكلمةَ. لذا سأستودعكِ هذا السرّ: تعلمين أني أجتمع كلّ شهر بمجلس الأطفال البلدي ليوضّح لنا هؤلاء الصغار

(1) التشديد من المؤلف. (المترجم).

رغباتهم حول التغييرات التي تطرأ على هذه المدينة...

كان قد استعاد لهجة رجل السياسة:

-حسنًا، لقد دعوت هذا المجلس لعقد جلسة استثنائية تسمح لمواطنينا الصغار بأن يتخلّصوا من الصدمة المتعلّقة بهذه القضية. ذلك أنّ الأطفال يتحدّثون فيما بينهم، فيقع أحيانًا، تشويه الوقائع...

-هل ترى أنهم لا يقولون الحقيقة دائما؟

-لا رغبة لي في المزاح، سيدتي... كما قلت لك، سأشرف على التئام «محكمة أطفال» لتعلن حكمها في شأن هذا الرجل؛ طبعا بطريقة رمزية بحت. وقد طلبت من الجهات القضائية الموافقة على إحضار المتّهم خلال الجلسة حتى يتمكن الضحايا من تكوين صورة عن وجه السوء الذي أصابهم.

كانت لطيفة مصدومة جرّاء العنف المرافق لمثل هذا الإجراء، ولكنّ هذا الرّجل المعروف بلطفه وإنسانيته راح يقدّم مبرّرًا بجدّية شبه علمية:

-لقد وافقت خلية المساعدة النفسية على مثل هذا الإجراء، وهي الخليّة التي أنشئت إثر الاعتداء على أماندين...

نطق باسم أماندين وكأنّ الأمر يتعلّق بابنته هو. فلم يبق بعد ذلك ما يضاف.

* * *

عند نزولي من عربة السجن انضمّ حارسان من الحيّ الإداري

إلى الأندونيسي والتشيليّة. أنا الآن أنتظر تحت حراستهم في البهو المفضي إلى مدخل قاعة المجلس. ثمّة شاشة تلفاز تتيح لنا متابعة افتتاح المناقشات. كان العمدة جاثما على منبر المدرج، وقد ارتدى صدارا مميزا يحمل شعار ديزيري «تحيا الحياة». ووراءه تجلس رئيسة الجلسة، بُنيّة ذات سنوات عشر تلبس بذلة نسائية صارمة وقد طلت شفتيها بأحمر الشفاه. وقبالتهما في صفوف المنتخَبين يجلس حوالي مائة طفل من سنّ الرابعة إلى الرابعة عشرة. وُضعت حقائب الظهر ولفافات اللُّمَج الخاصّة بهم على اللّوحات الرقمية؛ أحيانًا ينخرط أحد الأطفال في الصراخ فتنزل أمّه من مدارج الجمهور لتهدّئه قبل أن تنظَمّ إلى الأشخاص الكبار الذين لا يحقّ لهم التدخّل أثناء انعقاد المجلس. كان بعض الأطفال ممن قاربوا المراهقة يرتدون ألبسة مثيرة وخاصة الفتيات في أقمصتهنّ الضيّقة التي تسطّر صدورهنّ الناشئة وتنحسر لتظهر بطونهنّ الصغيرة، ولكن دعنا من هذا... نحن هنا بسبب انتهاك للحياء ارتُكب ضدّ طفل وليس من قِبل طفل كما يبيّن ذلك بوقار قاضي المدينة الأول:

-زملائي الأعزّاء (تلفّظ بهذه الكلمات دون أن يبتسم) كما تعلمون، نحن نجتمع في جلسة استثنائية، إثر الاعتداء الفظيع الذي ارتُكب من قبل موظف بالحيّ الإداري ضدّ رفيقتكم أماندين. أريد في البداية أن أطمئنكم بالتأكيد على أن المسؤول عن ذلك لم يعد واحدا من العاملين في هذه الدّار وأنه موجود اليوم خلف القضبان...

للعمدة نظرة متحمّسة ونبرة جادّة خبرتهما أثناء الاجتماعات؛

وكان دائما أقرب ما يكون من النزاهة ليتفحّص حالتي:

-مع ذلك، أنا واع بأنّ هذا غير كاف. أماندين انقطعت عن الحضور إلى الحضانة منذ عدة أسابيع، أتّصل بها بشكل منتظم ولكنّها لا تزال تحت تأثير الصدمة؛ سيكون الطريق طويلاً أمامها وأمام عائلتها قبل استئناف حياة عادية. لذلك بدا لي ضروريًّا تضامنًا معهم -ومع الأطفال الأربعة عشر المحتمل وقعوهم ضحية الملامسات- أن أجمِّع هذا المجلس البلدي الشبابي وقد حُوِّل إلى محكمة أطفال. أردت أن تكونوا قادرين على التعبير عن هذه القضية؛ أن تتحدثوا عن الكيفية التي عشتم بها هذه الصدمة، أن تتكلموا لتتذكروا، أن تتكلموا لتفهموا، وأن تتكلموا كي تنسوا. أنا سعيد في هذه الجلسة لتمكّني -بفضل علاقاتي مع وزير العدل- من إحضار المتّهم. تستطيعون الآن أن تحفظوا وجه من أساء إليكم. أمّا أنا فلن أتوسّع أكثر. هذا المجلس ليس مجلسي بل مجلسكم أنتم. سأنظمّ إلى صفوف الجمهور في آخر القاعة وأترك لكِ الكلمة سيّدتي الرئيسة لتشرفي على هذه الجلسة.

التفتَ بحرارة نحو الصبيّة التي كانت تمصّ إبهامها. فاستوت فجأةً في جلستها واتّخذت لها هيئةً رسمية:

-شكرًا، سيّدي العمدة على هذه المقدّمة.

باشرت الصغيرة قراءة النصّ المبسوط بين يديها حرفًا حرفًا في تردّد طفولي:

-طبقًا لما قرّرناه في الاجـ...تماع التمهيدي، أطلب دخول

الرجل الذي سنحاكمه، قبْل منح الكلمة للمُدْ...دعي العام ثم للمحامي المكلّف بالدفاع عن المتهم، لأن محكمة الأطفال تحترم أشكالَ العدالةِ الديـ...ديمقراطيةَ.

إثر هذه العبارة الأخيرة، صاحت:

-أيّها الحُرّاس، أدخلوا المتّهم!

أشار إليّ حارسا قصر البلدية بالوقوف، ثمّ دفعا باب قاعة المجلس ورافقاني في الدخول مرافقة لصيقة تسمح لهما بالتدخّل في صورة انقضاضي على فتاة صغيرة من جديد. مشتّت الذهن قليلا، ومكبّل اليدين، ألقي نظرة دائريّة على المجلس الشبيه بأيّ غرفة سياسية بمدارجه المخصّصة للأفراد المنتخَبين، وهناك في الأعلى، المقصورة الواسعة المخصّصة لجمهور النظارة... الأمر الوحيد المختلف هو أنّ المنتخبين هنا لهم رؤوس أطفال وسيماهم بلا ملامح، يلوكون قطع السكاكر؛ أفواه تقطر وقد سقطت أسنانها اللّبنيّة للتوّ؛ وأنوف فطس وأياد غير مكتملة النمو ترقن على لوحات رقمية تسجيلا للملاحظات، وكأنّنا إزاء سياسيين حقيقيين في خدمة الأمّة. كان بعض الأولاد يرتدون بذلات رمادية اشتراها لهم آباؤهم لهذه المناسبة مهيّئين إيّاهم لمستقبل مهني إداري. الأكبر سنّا، كانت خدودهم مورّدة، ورؤوسهم حليقة، وفي الآذان أقراط. وأنا أتقدّم أمامهم، خشيت موجة من الصّفير، ورشقات المماحي والأقلام، ولكنّهم ظلّوا يحافظون على صمت مهيب؛ في سلوك راشد يتباين مع وجوههم الطفولية.

-أدعو إلى المنصّة النائب العام جوناتان لودوك. أعلنت الرئيسة.

يخرج من الصفوف غلامَ أشقر يبلغ اثني عشر عاما، يبدو أصلع رغم حداثة سنه كأنه موظف سام. قصة شعره المستقيمة جدا تمنح رأسه شكل البيضة، وهي سمة من سمات رؤساء الدّواوين، تدعمها نظارات مستطيلة وعريضة زيادة عن اللزوم، وربطة عنق معقودة حول رقبته. بعد أن انضمّ إليّ قرب قفص الاتّهام، تناول الكلمة مثل خطيب شاب من خطباء المحاماة، وراح يرتجل القول ارتجالا:

-زملائي الأعزّاء، أذكر أني شاهدت وأنا صغير جدا، إحدى حلقات سلسلة ميكي التي يدّعي فيها الأعزبُ الصّلب بلوتو عدم حبّه للأطفال... في بداية هذه القصة يتذمّر بلوتو بشكل مستمرّ ويتعرّض لمجموعة من صغار الهررة لم تكن تطلب أكثر من اللّعب معه. ثم تنقلب الأدوار وينتهي الأمر بالقطط الصغيرة إلى تجاهله، فينطلق بلوتو في مراقبتها وتتبُّعها بشره فضوليّ محبَط. ولا يهدأ هذا المزيج من الغيرة والانجذاب إلا حين يلتقي بلوتو بكلبة ويصبح بدوره أبًا...

يبتلع جوناتان لودوك لعابه قبل أن يواصل:

-فكّرت مرّات عديدة في هذه الحلقة وأنا أكتشف القضية الحزينة قضية أماندين. وبالمناسبة، أنا لا أعرفها شخصيّا بما أنها أصغر مني بكثير، فقد كانت في روضة الأطفال حين كنت في حضانة الكبار...

رافقت كلماته حركاتُ الخطيب:

-نعم فكّرت في بلوتو وأنا أدرس حالة هذا الرجل الذي كلما سئل لِمَ اعتدى على صبيّة لا حول لها ولا قوّة، يجيب بهذا

الإنكار الوقح: «ليس صحيحًا. ثم إني علاوة على ذلك لا أهتمّ بالأطفال!»

سجّل صمتا حذرا قبل أن يدقّق في لهجة على درجة كبيرة من سلامة الفطرة:

-بداهة هناك رابط ما، بين المعرضين عن الأطفال والمبالغين في الاهتمام بهم؛ بين الفارّين منا والمندفعين نحونا بدافع لا يقاوَم ومضادّ للطبيعة.

بعدما تم وضع إطار القضية النفسيّ مرّ الادّعاء إلى بيان الأدلّة:

-ربما تجدونني أبالغ في الأمر إذا ما أكّدت أن المتّهم يعاني من كراهية مرَضيّة تجاه الأطفال. ولأبرهن لكم على صحّة ما ذهبت إليه، أريد استدعاء شاهد عثرنا عليه بمساعدة من مصالح الحيّ الإداري، بفضل تسجيلات الفيديو المحفوظة لدى إدارة النقل التقنية. أعلم جيّدا أن كلام شخص بالغ ليس دائما محلّ ثقة؛ ولكنّ الأمر يتعلّق بسيدة عجوز، صنف من الجدّات (تلفّظ بهذه الكلمة وهو يبتسم) أدعوكم إلى أن تولوها انتباهكم.

أشارت رئيسة الجلسة إشارة، فرأينا امرأة تقف في آخر القاعة، امرأة في الخامسة والستّين ما لبثت أن نزلت إلى حاجز الشهود. لم أحدّد هويّتها على الفور، ولكن حين أخذت تدلي بشهادتها، تعرّفت إلى صوتها الأجشّ وعاودتني صورة هذه السيدة بمعية صاحبتها في آخر الحافلة، -يوم كنت عائدا من العمل متوتّرا بشكل مخصوص-. أعلنتْ وهي تلتفت إلى الجمهور:

-في واقعة أغرب مما تبدو عليه، وبينما كان الأطفال جالسين في الحافلة بهدوء، صاح هذا السيد: «انظروا إلى هؤلاء الصغار سيّئي التربية...» أو شيئا من هذا القبيل. مع أنه لم يطلب أحد شيئا. ويبدو أنه كان يريد أن يجبر الأطفال على النهوض! وكأنهم -يا للملائكة- لم يكونوا مرهقين بعد قضاء يوم في مركز الهواء الطلق...

تكلمتُ:

-عندما كنت صغيرا، سيدتي العزيزة، كان الأطفال ينهضون ليتركوا أماكنهم لكبار السن!

-أيها المتّهم الكلمة ليست لك، قاطعتني الرئيسة بصرامة.

من جهته أضاف المدّعي العام لودوك، مَلْمحا ساخرا موجَّها إلى المجلس:

-عن أي عهد يتكلّم المتهم، فأنا أجهل ذلك؟ ولكن هو ذا نموذج على التخريب الذي أنجزه نوع التربية التي كانت تمارس *في تلك الفترة الشهيرة*!

سَرَت في المجلس عاصفة من التصفيق. طالبت الرئيسة بالهدوء قبل أن تعيد الكلمة إلى جوناتان لودوك. فلم يلبث أن أجمل القول وهو يمسك بنظاراته بطرف الأصابع قبل أن يضعها على أنفه:

-نحن لا نودّ إقحام أنفسنا في المسار القضائي. فكما تعلمون هذا المجلس استشاري صرف وعدالة البالغين هي المراقب الوحيد لسوء تصرّف المتهم... مع ذلك أنا متيقّن من أنّ هذا الرجل

يشكّل خطرا حقيقيا على نفسه وعلى الآخرين. إنّ أماندين وعائلتها (دون الحديث عن الأربعة عشر الآخرين المفترضين) في حاجة إلى أن تسلّط عليه عقوبة عادلة. ولكن، لأنني طفل، ولأنّ لديّ إيمانًا بالحياة، فإني أريد أن أقول أيضا، إنه ما من بالغ يضلّ ضلالا أبديّا. أتمنى على الله أن تعدّ المحكمة علاجا يساعد المتهم على الخروج من كوابيسه.

-أنتم كابوسي الوحيد أيها المخاطي!

لم أستطع أن أتماسك، ما سمح للمدّعي العام بأن يستخلص مبتسما نصف ابتسامة:

-سبق وقلت لكم...

جرت في المجلس عاصفة من الضحك المكبوت بينما سحبت الرئيسة مجدّدا إبهامها من شفتيها المحمرّتين وأعلنت عن مداخلة الدفاع. نزلت إلى الحاجز صبيّة في سن الحادية عشرة ترتدي صدارا وتنّورة زرقاء بَحْرية. تتهدّل على كتفيها ضفيرتان كأنها قدّيسة مصون. وتناولت الكلمة بصوت رقيق:

-من تلك الرسوم المتحرّكة المهمّة التي ذكرها الأستاذ لودوك منذ قليل، سأحتفظ على الأرجح بجانب آخر: وهو حين وجد بلوتو السكينة والسلام بعد أن أسّس عائلة. أعتقد فعلا أنه من غير المعقول أن نعالج حالة المتهم دون أن نأخذ في الحسبان وجع المرء المحروم من الأبوة، غياب الاتصال بالصغار الذي ينتهي إلى أن يترجَم بنوع من النفور. وحول هذه النقطة هناك شهادات أخرى تستحقّ أن يُستمع إليها.

هذه الأخت الطيّبة ليس لديها النية لتفنيد التهمة. هي فقط تحاول أن تجعلني أبدو صديقَ طفولةٍ محتمل، أبًا محبطا من أنه لم يصر كذلك. وفي كل الأحوال، ما كان لي أن أتخيّل الأساليب الدنيئة التي بدت هذه المحكمة مستعدة للّجوء إليها لتجعلني أتقيّاً. فقد أعلنت المحامية استنادا إلى نظريتها:

-الشخص الذي سيحضر إلى سياج الشاهد يعرف المتهم أفضل من أيٍّ كان؛ إنه يعرف قلب الأب الذي يتخفّى وراء قلب الحجر...

يصّاعد النشيج إلى حنجرتي، وأنا أرى في آخر القاعة خيال لطيفة الأهيف الجميل، وملامحها التي هدّها التعب وأنهكها الألم. أدركُ وهي تنظر إليّ بعينيها الكبيرتين الحزينتين المفرغتين من طاقتهما المعهودة، حجمَ الابتزاز الذي أُخضعت له: «إما أن تشهدي وتلعبي لعبة المحكمة وتنيري سبيلنا حول مشكلة هذا الرجل مع الأطفال فندفع بالظروف المخفّفة للحكم، وإما أن ترفضي ولن نستجيب لأيّ شيء». ناسية أحلامنا السعيدة خارج إكراهات تلك المرحلة، جاءت لطيفة لتشهد أمام هذه المحكمة لأن الأمر في نظرها يتعلّق بالفرصة الأخيرة. ومع ذلك بدت سئمةً جدا، وهي تضع يدها على عارضة الحاجز وتجيب عن الأسئلة.

-منذ متى تعيشين مع هذا الرجل؟

-عشرة أعوام.

-هل كنتما سعيدين معا؟

-سعيدين للغاية. كنا نحيا كحبيبين يتعهّدان المتعة ويصونانها.

-ألا ينطوي ذلك على شيء من الأنانية؟

-ربما، ولكننا، في حالتنا تلك، كنا سعيدين.

-ولم تفكرا قط في تقاسم هذه السعادة مع أطفال؟

مرّرت لطيفة لحظة من الصمت قبل أن تنظر إليّ في يأس، وكأنها كانت تخون عهدنا.

-فعلا، فكّرت في ذلك أحيانا، ولكن، على أيّ حال هو لم يكن يريد!

سرت همهمات بين الحضور. واستدارت المحامية الفتية لدعم هذا الكشف الجوهري:

-أعتقد أن المحكمة بدأت تدرك أنه وراء هذه القضية تكمن مأساة زوجين...

ثمّ عادت تسأل لطيفة من جديد:

-كيف أقول... ألم تلاحظي قط، على صاحبك سلوكا يبعث على الريبة في تعامله مع الأطفال، البنات الصغيرات والأولاد الصغار؟

ردّت صاحبتي بما يشبه الصرخة:

-لا، مُطلقًا، أقسم على ذلك! أنا متأكدة من أنّ هذه القصة برمّتها افتراء محض!

تعالت في القاعة صيحات أخرى. قام على إثرها جمعٌ من الآباء وراحوا يصرخون:

-إنه لأمر يدعو إلى الشفقة أن تقولي كلاما كهذا. لقد حدثنا

أبناؤنا، أيتها العاهرة!

أستغلُّ الجلبة لأسأل لطيفة:

-لماذا جئت إلى هذا الفخ؟

-هذا كلّ ما استطعت فعله يا عزيزي. وقد أمّنته لي الأستاذة باتاكي. سامحني.

تطرق الرئيسة بمطرقتها:

-شيئا من الهدوء، رجاء...

همست لي لطيفة وهي تنشج:

-أنا منهكة، لم أعد أحتمل. عليك أن تفهمني، سأبتعد لبعض الوقت. وبالنسبة إليك، آمل أن يسير كل شيء على ما يرام.

تناولت المحامية الكلمة مرة أخرى:

-سؤال أخير، سيدتي: هل مازلت ترغبين في أن يكون لك طفل؟

-نعم، أعتقد ذلك. أجابت لطيفة.

-وهل تتمنّيْن إنجاب طفل... من المتهم؟

مرة أخرى، مرّرت صاحبتي الجميلة لحظة صمت قبل أن تتنهّد وهي تنظر إلى أسفل:

-أعتقد أنّ هذا لم يعد ممكنا.

توجّهتْ نحو منفذ الخروج من قاعة المجلس دون أن تلتفت وراءها، مخلّفة إيّاي مفطور القلب، كرجل ميت، تخلى عنه الجميع. في الأثناء، كانت المترافعة الفتيّة قد وصلت إلى استنتاجها الأخير:

- بكل تأكيد، نحن إزاء تهمة يصعب تفنيدها. ولكني أحبّ أن أذكر الملابسات المخفِّفة، وأن أذكّر بأن هذا الرجل كان على ما يبدو، صاحبا جيّد الصحبة. وأعتقد أنّه على الخبراء أن ينكبّوا على حالته ويميطوا اللثام عن هذا العنصر المنحرف الذي منعه من أن يصبح أبًا، وقاده إلى هذا التصرّف المجنون مع أماندين ومع خمسة عشر طفلا.

-حمقاء!

خيّم الصمت. فتكلمتُ بصوت معتدل ولكن واضح كفاية كي أكون مسموعا من جميع من في القاعة. وكأنما لأؤكد ما كنت بصدد قوله، أستجمع قواي، وأجلي عني الحزن وألتفت إلى الرئيسة لأسأل بكل هدوء:

-سيّدتي الرئيسة، أحبّ أن تصمت هذه الحمقاء وأن أعطى الكلمة ما دمت على ما يبدو، أملك الحق في ذلك، خلال هذه الجلسة.

تزمّ الصبيّة الموجودة على المنصّة شفتيها علامة على الاستياء وتبحث كما هو ملاحظ عن الكلمات قبل أن تجيب بصبيانيّة:

-لثتَ[1] مجبرا على شتم زميلتي.

ثم واصلت بصوت مهيب رغم أنه متردد:

-ولكن، محكمتنا ديمو... قراطية، ولك الحق في الكلام لبضع دقائق.

---

(1) حاكينا طريقة المؤلف في إبراز النطق الصبياني لبعض العبارات وهنا أصل الكلمة «لست». (المترجم).

-شكرا سيدتي الرئيسة، وفي الواقع، لن أطيل عليكم.

التفتّ نحو الحضور دون أن أتخلّى عن لهجة مؤدَّبة ورصينة قدر المستطاع:

-كل ما لديّ لأقوله لكم يا عصابة الولدان التافهين...

مع هذه الكلمات، انطلق الصفير بينما راحت الرئيسة تطرق بمطرقتها:

-شيئا من الهدوء، من فضلكم.

استأنفت، مقرّا العزم على المضيّ قدما إلى النهاية:

-كل ما لديّ لأقوله لكم، يا أصحاب المخاط والبلادة الصغار، يا كومة اليرقات المنذورة للهباء، كل ما أدّعي توضيحه لكم، يا زمرة العيال القذرين المدمنين على التلفاز حدّ التخمة، يا من تنفُذُ إلى دواخلكم كل الحماقات التي تُحقن بها آذانكم، بتواطؤ من آبائكم...

تعالى صفير آخرى من صفوف الحضور الكهول هذه المرّة.

-كل ما أريد أن أجعلكم تفهمونه، أيها الأقزام المساكين، يا من يحسن بكم أن تنكبّوا على اختباراتكم تنجزونها على مقاعد الدراسة، في انتظار أن تُعطى لكم الكلمة، وأن ترفعوا الأصابع ليُسمح لكم بذلك، وأن تعاقَبوا بسبب قذارتكم وأن تُجازوا على الجيّد النادر من أفعالكم...

ساد الصمت ثانية. والغريب أن بعض الابتسامات أخذت تنير الوجوه الطفولية. بدا أنّ هذا السيل من النقد المقذع يثير إعجابهم

ولكن كعرض من عروض السيرك في عهد سابق. هم الآن، ينصتون إليّ مغتبطين، بُلهاء، في غاية البهجة لمواصلتي هذا الخطاب المستشيط غضبا:

-كل ما لديّ لأقوله لكم، هو أنني لم أكن قادرًا البتّةَ على لمس هذه البَلْهاء الصغيرة أماندين، ولا الأربعة عشر الآخرين، لأنني لا أعرف شيئا أقلّ أهمّية من طفل. فأنتم بالنسبة إليّ لم ترتقوا بعد إلى منزلة الكائنات البشرية، وإنما ما تزالون حيوانات صغيرة لا أريد الإساءة إليها مطلقا، طالما تظل في زرائبها ولا تفسد عليّ حياة البالغين التي أحيا، وهي أصعب وأثرى وأعقد من حياتكم إلى أبعد الحدود. وحتى حين تكون حياة فاشلة، فهي أجمل في مأساويتها من جميع إيماءات الرضّع لديكم. بالنسبة إليّ أنتم غير موجودين، الزغاليل الأربعة عشر لا وجود لهم، أماندين لا وجود لها. باختصار ليس لديّ ما أفعله بهذه الحمقاء الصغيرة...

إثر رحيل لطيفة لم يعد يردعني أيّ نوع من اللّياقة. أرغب فقط في أن أعلم هذه المخلوقات بوجهة نظري؛ الطفولة تعتبرني الآن وحشا غريبا حقّا. في الصف الأمامي الأول، ثمّة طفل بدين في العاشرة من عمره، يبقي فمه فاغرا ولعابه يسيل ببطء. كان يبدو غبيا إلى درجةٍ -أفهم ذلك في هذه اللحظة- تعفيك من أن تفسّر له أيّ شيء. إنه ينظر إليّ كما ينظر إلى ما لا يحصى من تلك الملهيات التي ما فتئت توضع في متناوله منذ سنته الأولى. وبما أنّ هذه الفكرة كانت تزداد عندي وضوحا، فقد توقفت فجأة عن اندفاعتي مفكرا في عبثية

استدلالاتي، لأذكِّر في أسَى:

-كل ما اقترفته هو أني دخّنت سيجارة.

عاد الصمت ليخيِّم. ثمّ لاحظت محاميتي الراغبة في إغراقي بأيّ ثمن:

-في كلّ الأحوال ، ليس من العسير احترام صحّة الأطفال!

-ولكن لماذا تريدونني أن أحترم الأطفال؟ عليهم هم أن يحترموني!

لهذه الكلمات علا ضحك مجلجل نشط، غمر القاعة بالرغم من اعتقادي أنني أتكلّم بنوع من الحسّ السليم. وقبل الوقت المتوقع، عاد المدّعي الفتى إلى منصة الشهود ليختم:

-سيدي، لنتجاوز مسألة كونك مذنبا، فهي تهمّ عدالة البالغين. بل لنتجاوز حتى السيجارة: لك أن تكون أشدّ الناس غواية ولكن يجب أن لا يمنعك ذلك -على ما يبدو لي- من إظهار بعض المشاعر الإنسانية. أضف إلى ذلك أنّك تستطيع أن تقلّل من فداحة جرمك بإعلانك مرّة واحدة على الأقل، احترامك للطفولة، دعمك للحياة الوليدة. لمَ لا تستلهم شيئا من الموقف الرّائع الذي وقفه ديزيري، وقد كان الجميع يعتبره مجرمًا، إلاّ أنّه عرف كيف يقول هذه الكلمات: «تحيا الحياة»؟ ومن خلال هذه المأثرة استحقّ حرّيته. فماذا ستفعل أنت لتستحقّ حريتك؟

هنا يكمن السؤال. أستطيع أن أبيّن ما يقوم عليه اختلافي مع جونسون: عنوان البراءة هذا الذي يمثّل في نظري خطأً في التحليل.

ولكنّي بمثل هذه النظريات لا أضيف شيئا سوى مزيد من توريط نفسي، فأدرك أنّه عليّ أن أصمت. ألتفت إلى الرئيسة التي تنظر إليّ وهي تمصّ إبهامها، وأعلن في إعياء:

-أريد المغادرة.

مُحاطًا بحرّاسي، أغادر القاعة دون أن أضيف شيئا.

عندما انغلق الباب خلفي، تبيّنت في البهو خيال محاميتي، محاميتي الحقيقية، مارين باتاكي. كانت قد وعدت بالمجيء. ومرّة أخرى وصلت متأخرة. مع ذلك، ولأوّل مرّة على الأرجح، يرفع انتباهي لهذا الأمر معنوياتي. فأن تدافع عني عاجزةٌ يعني أني لا أملك أدنى فرصة للنجاة بعد أن فقدت كل شيء (عملي، وظيفتي، امرأتي، شرفي...). تبدّى لي تدنّي مستواها ساطعا في الضوء باعتباره معطى بسيطا جدا من معطيات الحالة الإنسانية. أنا لست ضحيّة مؤامرة، بل ضحيّة تراكم للغباء تراكما طبيعيّا. لم تتجاوز مارين باتاكي عاداتها المعهودة، إذ لم تُظهر أدنى شعور بالذنب. واكتفت بأن تقول لي:

-لقد كنتَ سيّئا جدّا!

-حقّا؟

-نعم، حقّا! لهذا لا أستطيع الدفاع عنك. الأطفال على حقّ: ساعدني، قم بحركة، مثل ديزيري!

إذن، عليّ أنا أن أقدّم لها خدمة: عليّ أنا أن أبرِّئ نفسي كما فعل أشهر زبائنها.

# (10)

على امتداد شهر، شدّ مصير ديزيري المشاهدين شدًّا مدوِّخًا. وفي نهاية شهر أفريل بلغ سوق الدعاية ذروته بفضل سيجارة المحكوم عليه بالإعدام الأخيرة. وإثر العفو الرئاسي، كاد الجمهور العالمي يدخل في سبات عميق. كان وكلاء الإعلانات على أهبة التخفيض من ميزانياتهم عندما أعادت المؤامرة المروّعة، التي قادتها *أكاديمية الشهداء*، أعدادًا غفيرة من المواطنين إلى شاشات التلفزة، رافعةً نِسب المشاهدة إلى أرقام غير مسبوقة منذ كأس العالم الأخيرة في كرة القدم. حتّى أنّ بعض المجادلين لم يتوانوا عن إثارة نظرية المؤامرة المدعّمة بحزمة من الأسئلة الدّنيئة: أليست هذه المجموعة الغريبة ناشئةً عن عملية تلاعب؟ ألا تخدم موضوعيًّا جماعات الاتصال الكبرى؟ وفي الحال قامت حملة معارضة لمجابهة فكرة هي على درجة كبرى من الاستخفاف العابث بحياة الرّهائن.

كان ديزيري قد أغلق نهائيًّا أفواه خبراء التشويه الإعلامي، حين أمال دفّة الرأي العام لصالح الضحايا، وحين طلب من الجميع أن «يصوّتوا من القلب». في السياق نفسه، وبعد شهر من انطلاق بث البرنامج التلفزي، تم أخيرا اكتشاف اسم الخاسر في الجولة الأولى على الرغم من كونه بدا مرتاحا جدا في مسابقة الرقص العصري.

إنّه الصّحفي الألماني. وقد مثّلت خسارته مفاجأة عامة، لا سيما وأنه لم يكفّ عن التكرار أمام الكاميرا: «جئت إلى هذه المنطقة من أجل المعلومة. قتلي هو قتل لحرّية الصحافة». هل كان السخط على مؤيّديه قد لعب دورا ضدّه؟ (كان مؤيّدوه عبر العالم يناضلون من أجل تحريره، مقتنعين بأن عمله يجعله يستحق صفحًا مخصوصًا). هل اعتبر الجمهور أن هذا المراسل الصحفي المكلّف بمأمورية، كان يعرف المخاطر التي سيواجهها؟ أم أنّ عليه أن يقضيَ أوّلاً مادام رجلا في الأربعين، قبل الفتى المراهق أو المرأة أو الشخص المسنّ؟ على كل حال، اتّفق المختصّون في اتجاهات الرأي على الملاحظة التالية: إنّ أصول المتبارين ودياناتهم لم تلعب هذه المرة أيّ دور محدِّد في عملية التصويت. فأن يكونوا أصيلي الغرب أو أصيلي العالم الثالث أو آسيا أو البلدان العربية، فإن غالبية من المصوِّتين كانت تُعَيِّن هذا الرجل الألماني باعتباره خاسرا، بينما لايزال الشاب كيفن والعجوز فرانسواز يختالان في المقدّمة. بعد مرور أربعة أسابيع من الاختبارات، «نضجت» اتّجاهات الرأي أكثر لتمارس اختياراتها الخاصة دون الخضوع لاعتبارات خارجية. في هذه المرحلة، حين أصبح السباق ذا بال، تجمّد كلّ شيء وقْفًا على سؤال مفزع:

هل سيضع مريدو جون واين تهديداتهم موضع تنفيذ، أم أنهم سيستجيبون لنداءات طلب الرّحمة؟

كان الرأي العام يأمل كلّ صباح أن يتلقّى خبر العفو عن الصّحفي، رغم أنّ زوايا العقل البشري السادية المظلمة، كانت تنتظر الأسوأ أمام التلفزيون. في الأسبوع الموالي، أخمد خبرُ الإعدام ونشرُ

صوره جذوة أولئك المتهافتين على مشاهدة البرنامج بوصفه وسيلةً للّهو والتسلية. فبعد تركيع الصحفيّ الضحية على ركبتيه، وقد قيّدت يداه وراء ظهره، عمد قائد فرقة الكومندوس إلى ذبحه بنفسه أمام الكاميرا قبل أن يُلوِّح بالرأس مفجوعة ومضرّجة بالدّماء. أعلنت قسوةُ شريط الفيديو التي لا تُحتَمل عن صحوةٍ كبرى للضمائر. إذ عبّرت مجموعات من روّاد الأنترنت عن مقاطعتها لهذه السلسلة السقيمة؛ وتخلّت القنوات التلفزية في معظمها عن تقاريرها حول *أكاديمية الشهداء* مُفضّلةً ترك الأمر بيد أجهزة الاستخبار السرية للتحرّك في إطار من الكتمان من أجل تحرير الأسرى.

ربما كان كل شيء سائرا إلى الزوال، لولا ظهور هذا البلاغ الجديد معلنا أنّ رجلا -قيد الاعتقال لاعتدائه جنسيّا على خمسة عشر طفلا- يرجو «تسليم نفسه لفرقة الكومندوس مقابل حياة أحد الرهائن». وقد لخّص البلاغ القضيّة القذرة التي قادت هذا الشخص إلى السّجن في انتظار محاكمته: انتهاك للحياء ضدّ صبيّة في سنّ الخامسة، وشبهات حول تكوين شبكة شذوذ ضحاياها أطفال الحيّ الإداري. لا شيء يوحي بالشفقة... فبتحطيم أحلام بنت صغيرة، دمّر هذا الرجل حياته الخاصة وفقد وظيفته وصاحبته. فكان أن أبلغ إذن، محاميته الأستاذة مارين باتاكي بهذا العرض الذي وضّح فيه بدقّة: «آمل بمثل هذا التصرّف أن أدعم الصغيرة أماندين نفسيا وأساعدها على طرد شياطينها، وأن أعيد لنفسي اعتبارها، بإنقاذ حياة بريء.» تلك هي اللقطة المسرحية التي ما كان لأحد أن يتوقّعها. عندما قرأت الأستاذة مارين باتاكي في الصحف البلاغ الذي أُعيدت

صياغتُه بإشرافها، اعتراها مُجدّدًا ابتهاج حقيقي. فها هو موكّلها يجد الحلّ الأمثل مرة أخرى! حتى وإن كان هذا الاقتراح مُعَدًّا من قبل مجرم بائس، فبإمكانه أن يُعدِّل مسار *أكاديمية الشهداء*.

لقد وقع بث السّبق الإعلامي من قِبل جميع التلفزات وعاد الرأي العامّ للنقاش من جديد. يرى البعض أنه لا بد من السماح بإجراء عملية التبادل بينما يرفض البعض الآخر خرق الإجراءات القانونية حتى ولو كان ذلك من أجل إنقاذ حياة رهينة من الرهائن. كانت غلبة الموقف الأول واضحة وضوحا شديدا. وقد لخّص ذلك فرانسوا البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما، وهو مهندس-مبرمج، حين أُجرِيَ معه حوار في النشرة الإخبارية: «هذا الرّجل اقترف أشياء رهيبة. إنه مريض. ولكن، مادام يريد أن يعيد لنفسه الاعتبار بإنقاذ إنسان بريء حتى ولو خسر لأجل ذلك حياته، فهذا يعني أنه ما يزال يملك شيئا من الكرامة الإنسانية. فلماذا لا تُعطى له هذه الفرصة؟» وفي لقاء حواري مع والدة أماندين على قناة هولالا، وقد كانت ترتدي بنطالها الجلدي وسترتها البنفسجية، لم توافق الأم على هذا الرأي، بل قالت غاضبةً وبصوت ساخط: «ليس هذا ما سيساعد ابنتي على التجاوز بعد الذي عاشته! فهي لم تعد تتكلم اليوم، ولم تعد تريد الذهاب إلى المدرسة. ولم أحصل بعد على التعويض المادي والمعنوي. إنّ الأطفال هم دوما من يدفع الثمن! المهمّ هو أن يسدّد هذا الوحش ما عليه لفائدة المجتمع، وأن تحصل أماندين على شيء من أسباب الراحة كي تتعافى.»

وكأنما لتُقدِّم جوابًا عن هذه الهواجس، أعلنت الأستاذة باتاكي

أنّ المحكوم عليه سيؤمِّن العدالة على جميع ممتلكاته قبل نقله المتوقَّع إلى الشرق الأوسط، تحسّبا للاضطرار إلى دفع مثل هذه التعويضات المحتملة. ظلّ الموقف المبدئي الذي تبنّته السلطات السياسية منذ بداية القضية قائما: «لا تفاوض مع مختطفي الرهائن»؛ وهو موقف رسمي تتمّ محاربته بشكل يزداد صراحة يوما بعد يوم من قِبل أهمّ الجمعيات المدافعة عن الضحايا: «نعم لمقايضة وغد ببريء!» هذا ما كانت تلوّح به المناشير التي يتم توزيعها في ركن بآخر الشارع. أمّا الحدث الأبرز في هذ الجدل المحتدم فهو تصريح لمجموعة توحيدية من الأساقفة والأئمة والأحبار، «تدعو السلط المدنية والدينية إلى فعل ما بوسعها للسماح بهذه الحركة الخيرية التي من شأنها أن تنقذ البريء وتنقّي المذنب من خطاياه». وفي هذا السياق الذي دائما ما كان فيه لمختلف الكنائس وزن يؤثر في قرارات السلط، نجحت رسالة السلام هذه في استصدار القرار المرتقب.

لوحظ فيما بعد، أن لا أحد اهتم برأي مختطفي الرهائن. كيف يمكن أن نعلّق أملنا على عصابةٍ من المجرمين لتحرّر بريئًا وترضى بمجرم بدلاً منه؟ هل ستذهب إلى حدّ المجازفة بتعريض أفرادها للخطر من أجل القيام بعملية المقايضة هذه؟ ظلّ هذا السؤال معلّقا حتى ظهرت رسالة من الإرهابيين على القناة Allah1 بيّنت أخيرًا موقفهم الرسمي؛ فباستجابتهم لنداء السلط الدينية، أرادوا أن يظهروا للعالم طبيعة قضيتهم الإنسانية القائمة أساسًا على ردّ الاعتبار للإرهاب؛ لذا قبلوا مبدأ التبادل. وبعد أن أخذ كلّ هذه المعطيات بعين الاعتبار، أشار رئيس الجمهورية في حوار تلفزيوني

إلى سبب انضمامه أخيرًا إلى موقف الخبراء الدينيين؛ وذكر أنّ المبادلة يمكن أن تتمّ خلال النصف الثاني من شهر جوان. دون أن يُكشف عن تاريخ دقيق لذلك. وبعد بضعة أشهر، روى الأب الخوري في حوار حصري أجرتْه معه القناة التلفزيونيّة *القدير ربُّنا*، مجرياتِ الأحداث خلال تلك الساعات الدراماتيكية.

* * *

جرت العملية في قلب الصحراء، على مسافة بضعة كيلومترات من الحدود السورية. فبعد أن منحت الشخصيات الدينية الضوء الأخضر، قبلت ميليشيا مسيحية مزروعة في المنطقة أن تحميَ الرّحلة. كان على المخابرات العامة أن تنقُل المعنيَّ بالأمر إلى بيروت. ووفق المخطط الذي قبلته الأطراف المختلفة، كان الاتفاقُ يقضي بأن يصحب السجينَ بعد ذلك ممثِّلٌ للكنيسة المارونية حتّى نقطة التبادل. وكان الأب الخوري، وهو مطران كاثوليكي متعوّد على مثل هذه المقايضات، قد كلّف بضمان نجاح المهمّة المتطابقة مع ميول العون السري لديه، وهي ميول نمّاها منذ سنوات تحت رداء الكاهن.

فور وصوله إلى مطار بيروت بين رجُليْ شرطة بالزيّ المدني، اُقتيد المتطوّع في خِفارة البوليس اللّبناني إلى فرع من فروع الأبرشِيّة. اجتازت العربة سور البناية الأبيض العالي حيث يقع الفصل في قضايا الديبلوماسية الدينية السرّيّة. وأثناء نزول السجين من السيارة، انتابه للمرة الأولى منذ إيقافه، شعورٌ بأنه يدخل مكانا له حرمته، بعيدا عن ضغوط التحقيق. نافورة يجري ماؤها وسط ساحة يتضوّع فيها شذى الياسمين. ثمّ وبمجرّد خروجه من السيارة، شاهد أسقفًا متين

الصبيّة في بذلة سوداء يتقدم على درج المدخل؛ وجه مدبوغ وصليب فضّي صغير يزين طيّة ياقة الجاكيت وسيجارة بين شفتيه. نزل الأب الخوري الدرج على طريقة مغامر قديم ثم مشى نحو ضيفه وكأنّه يستقبل أحد المدعوّين:

-صباح الخير، أنا سعيد بالتعرّف إليك. قال ذلك بتكرير الرّاء[1] وبصوت أجشّ.

ودون أن يخصِّص وقتا لتحية ممثّلي المخابرات العامة ولا الشّرطة اللّبنانية، بادر إلى معانقة السجين وكأنه يشكره على مجيئه ثمّ أعلن:

-سنرحل غدا صباحا ولكني أودّ أن أتحدث معك قليلا. سنشرب كوبا من الشاي ونصلّي. أيها السادة هلاّ فككتم قيدَه؟

-هيه، مهلا! هذا ليس فندقا! صاح واحد من الرجال لم يكن يعيرهم سمعه.

التفت إليه الكاهن غاضبا:

-حسب الاتفاقات السابقة، السجين في عهدتي في الوقت الراهن، أعامله بالطريقة التي تناسبني، بل وبوصفه ضيفا مبجّلا إن شئتُ. عند انبلاج الصباح، سأسلك الطريق صحبة جنود ميليشيا المسيح الملك في اتجاه موقع التبادل. ستنتظرون عودتي هنا. ثمّة شقة تحت تصرّفكم في الجانب الآخر من الساحة. إلى ذلك الوقت لم يعد هناك ما يمكن أن نتحادث فيه.

مُحَرَّرًا من أغلاله، تبع السجينُ الأسقفَ إلى حجرة عالية السقف

---

(1) يُنطق حرف «R» في الفرنسية «آغ» مرققة، والمؤلّف يريد أن يبرز أنّ الأب الخوري نطقها «راء» كما تنطق في العربية، وتسمّى في الفرنسية «R roulé». (المترجم).

تؤطّرها لوحات دينية تمثّل عددًا من الأساقفة والبطاركة. جلس الرجلان متقابلين تفصل بينهما منضدة من الخشب الصّلد. دخلت راهبة الغرفة تحمل صينية وقدّمت شايا. ثم أخرج رجل الكنيسة علبة سجائر جولواز[1] دون مصفاة ووهب واحدة لمحدّثه:

-أعلمُ جيّدا أنه في هذا النوع من القضايا، يمكن للأكاذيب المختلَقة والمبالغات النابية أن تدمّر حياة إنسان. إنها تجربة مؤلمة، نعرفها نحن في الكنيسة معرفة جيدة.

لبلوغ الشرق الأوسط، في حرارة موفى شهر جوان الشديدة، ارتدى السجين بذلة ذات لون فاتح وقميصا خفيفا. لقد وقع تمكينه من التصرّف في خزانة ثيابه الخاصة، كما لو أن العدالة نفسها، تأخذ على محمل الجد اختياره للزيّ الذي يمكن أن تكون له أهمّية في اللّعبة التلفزية. مع ذلك، كان الموظف البلدي السابق يشعر، وهو يغوص في غياهب الفظاعة، بحرّية غريبة، وذلك للمرة الأولى منذ أسابيع عديدة. ودون أن يقول شيئا، ابتلع من السيجارة أنفاسا ثم نفثها حواليه وهو يرسم دوائر الدخان. في حين واصل الكاهن الكلام:

-أطفال البلدان الغنيّة، صاروا اليوم ذوي حساسية شديدة!

بتقليله من فداحة الجريمة ضد الطفولة، يظنّ السامع أنه يريد الحصول على اعتراف، ما دعا الأسير إلى إبداء حركة تدلّ على عدم الارتياح:

-ربّما... غير أنه لم يحدث البتة أن لمستُ بنتا من البنات الصغيرات!

---

(1) من أنواع السجائر الفرنسية الفاخرة. ومعنى الكلمة: الغاليات أو صبايا بلاد الغال. (المترجم).

-إن كنتَ بريئا فعلا، فما الدّاعي إلى تسليم نفسك رهينة؟

-لأنه لم تُترك لي الفرصة ولو للحظة لإثبات هذه البراءة!

-كان في مقدورك انتظار المحاكمة.

-كانت ستجري في سرّيّة تامة تجنّبًا لتعريض الصبيّة للصدمة. وقد اقتنعت محاميتي بانقطاع كل أمل لي في النجاة باستثناء هذه الفرصة. ولنقل إنني أفعل هذا من أجل الشرف!

-لا يزال بإمكانك التراجع عن قرارك.

-مهما يكن من أمر، فقد خسرت كل شيء. ثم... إنّ لي مأربا وراء ذلك يتعلّق بقضية جونسون كما تعرف بلا شك، عندما كتب «تحيا الحياة» بواسطة باقة أزهار قطفها.

-كان ذلك براعة منه. -لاحظ الكاهن-، لقد غدا مشهورا. وبشيء من حسن الطالع ستقع تبرئته قريبا، وسينال تعويضات فوق ذلك .

-طوبى له. على كل حال، أردت أن أردّ على نظريته: «أبدا لن أسيء إلى شيخ أو امرأة أو طفل...»

-«... ولا إلى ذي إعاقة!» نعم، تذكّرت. إنه مبدأ عتيق، أنت تعرف: «الأطفال والنساء أوّلا!»

-أتّفق معك، ولكن في هذا العالم المشغول إلى درجة كبيرة بالدفاع عن الضعفاء، ماذا عن الرجل، الرجل العادي ذي الأربعين عاما أو الخمسين، ألا يستحقّ قليلا من الشفقة؟ إنه السؤال الذي توصّلت إليه وأنا أتساءل عن أيّ من رهائن *أكاديمية*

*الشهداء* كنت أفضّل أن أنقذ وأنا أهب نفسي أسيرا.

-كيف تمكّنتَ من متابعة هذا البرنامج؟

-سمح لي مدير السجن بأن ألج شبكة الأنترنت لأعدّ العدّة... فانخرطت في عملية التصويت بطريقة النفي التفاضلي، مبتدئا بكيفن، هذا الأحمق الذي يفوز في جميع الاختبارات مستعرضا فتوّته. ففي نهاية المطاف، أحدثُهم سنّا هو أدناهم وعيًا، ومن المحتمل أن يكون أقلّهم خوفا من الموت... ثم أقصيت فرانسواز هذه السيدة العجوز التي تريد أن تموت هي الأولى. فما الدّاعي إلى حرمانها من ذلك؟

-ما تقوله قاس قليلا.

-كلاّ، إنه أمر منطقي، وعِلميّ تقريبا، سيادة المطران. الصحفي هو الآخر لم يترك في عقلي أثرا يُذكَر. فهو شخص قد سار إلى حتفه حين سعى في تلك البقعة من الأرض طلبا للمعلومة. طبعا كان يمكن لحملة المعاداة التي أثارها أن تستقطبّ تعاطفي معه، ولكنّ عملية إعدامه لم تترك لي الوقت الكافي لذلك.

-كان بإمكانك أن تختار الممرّضة الكورية.

-طبعًا، إنها تستثير العواطف في مهمتها الإنسانية. ولكنّها تبدو منجذبة إلى شقاء العالم، ولم تقترب قط بما يكفي من جراحات الإنسانية وعذاباتها. لقد حصلتْ على الخدمة اللازمة هذه المرة...بدا للحظة وكأنه يفكّر قبل أن يستخلص:

-في الواقع، ثمّة شخصية واحدة من المجموعة بدت لي جديرة

بالبقاء على قيد الحياة: هذا الكَنَدي الذي بلغ من الغباء درجة جعلته يأمل في الإثراء بإقامة سلسلة من مغازات بيع الكحول في بلد تشهد الحرب الإسلامية فيه أوجها. إنه المتباري المتوسط التفاهة، الفاشل في اعتدال، الممثّل الأفضل للنوع الإنساني في خلاصته وعناده وقلة الإثارة لديه، وهو ما يجعله بديعا بشكل غامض... فحين كان الآخرون يحاولون ملامسة الجمهور بواسطة المشاعر الإنسانية، كان هو يتحدّث عن كلبه «رفيق دربه الوحيد» بعد أن هجرته زوجته. أنا أيضا كان لي كلب... ولقد وقعتُ في شراك صداقة هذا الرجل الذي لا فتنة لديه ولا سحر، هذا الرجل الواقع بين جيلين، العاجز عن الغناء، المجرَّد من كل الصفات اللازمة لخوض غمار صناعة الترفيه. إنه لا يملك قطعا أيّ فرصة للنجاة ما لم أحلّ محلّه.

ظهر بريق في عينيْ الكاهن. كان شيء ما ساخر وهازئ منسجما انسجاما جيّدا مع ذقنه الحليق بشكل سيّئ وسيجارته وأصابعه الصفراء؛ شيء ما يقرِّبه من محدِّثه. سأل:

-ما الطريقة التي تأْمَل أن تمرّر بها هذه الرسالة؟

رفع المتطوِّع حاجبيه في إذعان:

-لسوء الحظ، تحديد شروطي أمر صعب. لقد عبّرت ببساطة، وأنا أقدّم عرضي للعدالة، عن هذا الطلب الذي يمكن أن يبدوَ ذا معنًى؛ وذلك بأن تكون الرهينة المحرّرة في عمليّة التبادل، رجلا مثلي بين الأربعين والستين من العمر. والآن بعد أن أزهقوا روح الصحافي، لم يبق سوى بائع الكحول. لقد

أرسلتُ نصّا إلى محاميتي ومثله إلى رفيقتي السابقة أشرح فيه معنى هذا الطلب، وإني أدعوك إلى تكرار إذاعته، بعد موتي.

-أعدك بأن أفعل.

ساد الصمت مرة أخرى. تبادل الرجلان النظرات وهما ينفثان دخان سيجارتيهما ثم ختم الكاهن الحديث:

-ستتناول شيئا من الطعام، وتستريح ثم نرحل. علينا أن نستيقظ باكرا فالطريق طويلة. ويجب أن يتمّ التبادل في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر.

استوى قائما في بذلته السوداء. وقاد الأسيرَ بخطوات هادئة لكاهن مُحنَّك نحو قاعة الطعام.

* * *

في الغد، توقّفت السيارة في الوقت المحدّد عند الكيلومتر 225، في مشهد طبيعي من الصخور والتِّلال الرّملية حيث تتشابك أجمات قليلة نادرة. وعلى بعد مئات الأمتار، كان أفراد الكومندوس ينتظرون في سيارتهم المرسيدس. وكان الأسير الجالس في المقعد الخلفي بجانب الكاهن، يشعر بانعقاد في حنجرته. فبعد لحظات سينغمس في لَعِب عبثي وعنيف. وعلى المقعد الأمامي، بدا رجال ميليشيا المسيح الملك متأهّبين لإنهاء الأمر. الأكتاف عريضة مثل أبطال أفلام الحركة، والرشّاشات على الرُّكَب وهم يسعلون سعال مرضى السُّلّ، ذلك أنّ الأب الخوري، ورغم احتجاجاتهم، ظلّ يدخِّن منذ انطلاق الرحلة دون انقطاع. واتّقاءَ الشمس الحامية، فقد اضطروا

عند تشغيل المكيّف إلى ترك النوافذ مغلقة. لذا، ولكي يتنفسوا قليلا من الهواء النقيّ فتحوا في النهاية أبوابهم وأشاروا إلى السجين بأن الوقت قد حان. تلقّى هذا الرجل من الكاهن عناقا أخيرا، ثم تبع الحرّاسَ على الرّمال الحارقة. مشى الإرهابيون نحوهم معتمرين قبعات رعاة البقر. كان الأسير المتطوّع متجمّدا من الفزع، يتقدّم مثل رجل آلي. عيناه جاحظتان، يكاد لا يرى شيئا، ويتعثر في كل خطوة. في نهاية المطاف توقف الفريقان وتبادل الحراس عن بعد بضع كلمات بالعربية. ثم أمرت الميليشيا المسيحية الأسيرَ بالتقدم في خط مستقيم عشرين خطوة، في حين كان على الرهينة المحرّر أن يتقدم في الاتجاه المعاكس. استأنف المُدان مسيره مغمض العينين وهو يُحصي بانتظام الأمتارَ الأخيرةَ التي تفصله عن المحنة القادمة. ثمّ توقف عند الرقم عشرة ليتبيّن مدى تقدّمه في قطع المسافة، وإذا به، وكأنما استجمع كامل وعيه، يطلق صرخة:

-لا، ليس هذا ما وعدوني به ! لست موافقا!

تعرّف في الجهة المقابلة على كيفن أصغر الرهائن سنّا وهو يركض نحو سيارة المجموعة المسيحية. لقد اختار الإرهابيون هذا المراهق النّشِط الذي رشّحته أصواتُ الجمهور، بديلا من الكَنَدي رئيس قسم المبيعات الذي كان يأمل في أن ينقذه. تلفّت في ذهول ولكنّ أحد حرّاسه المسيحيين هدّده آمِرا إيّاه، شاهرا في وجهه مسدسا:

-تقدّم أكثر!

خطا الخطوات الأخيرة التي تفصله عن الإرهابيين تحت تهديد السلاح، وهو يردّد بصوت مخذول:

-ليس هذا ما طلبت، ليس هذا ما قلت!

كان أحد أفراد الكومندوس والمسدّس في يده، قد أمسك به ودفعه بقبضته الشديدة إلى داخل العربة مبرّرا تصرفه في إنجليزية بدائية:

-نحن أيضا لنا أخلاق.

رغم أنّ هذه المبادرة كانت مناقضة لرغبة الأسير، فقد لقيت قبولا حسنا لدى الرّأي العام. الشّخص الوحيد الذي أنكر هذه الخيانة هو رفيقته التي نشرت في إحدى الصّحف النّص الذي يعرض فيه أسباب عمله ذاك واختياره لرهينة «من جنس الذّكور بين الأربعين والستّين من العمر». ولقد زاد مبدؤه هذا في تشويه سمعته. فرأى فيه البعض استفزازا واغتاض آخرون كثر لأنّ رجلا متّهما بجريمة ضد الطفولة وفي انتظاره حكم بالإدانة شديد، يدّعي لنفسه الحقّ في فرض اختياره للضحيّة التي سينقذها. لقد كان من الخطأ تحويلُه إلى بطل، وإنّهم لممتنون لأنّ الإرهابيين، على نذالتهم، يُبدون من الحسّ الخُلقي ما لا يتوفّر لدى أسيرهم الجديد.

بمجرّد نيل الشاب كيفن حرّيتَه، تلقى دعوات عديدة لاستضافته في المنابر التلفزية وقد أفاض القول في الاتّجاه نفسه. فلم يكن ينوي قط شكر صاحب الفضل عليه. وكان يرى أنه غير ملزم بالاعتراف بأيّ جميل لرجل لم يفعل شيئا لإنقاذه شخصيا، وإنّما كان يأمل في إنقاذ شخص آخر! أضاف أنه منذ اختطافه كان يريد أن يصبح فنّانا. وقد غنّى بشكل ثنائيّ مع بريتني من *ستار أكاديمي*، أغنية تكريم للرهائن الذين خالطهم على امتداد أسابيع، وبشكل خاص لفرانسواز المرأة

العجوز التي نقلت إليه «درسا رائعًا في الحكمة».

خلال الأسابيع الموالية، عرفت مسيرة *أكاديمية الشهداء* تطورا غير منتظر. فمنذ بداية الشوط الثاني اكتشف روّاد الأنترنت أنّ الأسير المتطوّع، كان يتقدّم الآخرين جميعا ببراعته في الاختبارات المختلفة. إذ احتلّ المرتبة الأولى في اختبار الثقافة العامة، وأثناء اختبار الأداء المسرحي أظهر تألّقا مخصوصا في مونولوج *هاملت*. ورغم أنه في مباريات الغناء كان أقلّ إقناعا، فقد ظلّ يحظى في عمليات التصويت بقسط وافر من الأصوات، لعلّه عائد إلى كلّ الأربعينيين والخمسينيين الذكور الذين تولّى الدفاع عنهم في وصيّته ويبدو أنهم تهافتوا على حواسيبهم من أجل أن يمنحوه أصواتهم.

كان القلق في المؤسسات القضائية يتعاظم. لا غرو أن الأسير قد أنقذ حياة مراهق، ولكن كان من المتوقّع أن يُبين عن مستوى هابط خلال الألعاب كي لا يعرّض حياة الآخرين للخطر. وكان من المنتظر ضمنيا أن يكون أول من يموت في انتظار حصول تدخّل محتمل بالقوة الضاربة يمكّن من تحرير من بقي على قيد الحياة. بل لقد أمّل البعض في أن ينسج على منواله مدانون آخرون فيسلِّموا أنفسهم إلى الإرهابيين من أجل تحرير جميع الأبرياء وهكذا تتحوّل *أكاديمية الشهداء* إلى موطن لتصفية حسابات داخلية بين سفّاحين وبلطجيّة.

صمد الأسير محبِطا هذا الأمل. ومن اختبار إلى آخر فاز في مباريات الشهر الثاني الذي ارتفع فيه رصيد الموتى بإعدام المرأة العجوز، وهو ما طالبت به هي نفسها ذاكرة ما أصابها من التعب

ومؤكّدة على ضرورة إنقاذ من هم أصغر سنّا. يبدو أنّ الوزن الرقمي لمتقاعدي الكوكب لا يكفي لإمالة الكفة لصالحها؛ ذلك أنهم كانوا أقل مهارة في استعمال الحاسوب من الطبقة الشغيلة للرجال النشطين. وعندما كانت الكاميرا تأتي لالتقاط ما يبوح به الأسير المتطوع إثر كل اختبار، كان يدلي بصورة دائمة ومتكررة بالخطاب نفسه. كنا نرى وجهه الحليق حلاقة سيّئة تحت إضاءة رديئة، في حلكة القبو الذي حُوِّل إلى قاعة جلوس صغيرة. وكان يوضّح وهو يجلس على أريكة حمراء قديمة من الإسفنج الاصطناعي:

«أريد أن أقول ببساطة للطيفة إنني أفكّر فيها، وفي لحظات السعادة التي عشناها. معاً تذوّقنا متع الحياة دون إطالة التفكير في المال أو السلطة أو العيال ولا حتّى في ماركات الملابس. لم نشعر بالحاجة إلى إنقاذ نوعنا ولا إلى تبديل الإنسانية. لقد عرفنا لذّة أطايِب الأطعمة والخمور ومتع القراءة والذهاب إلى السينما والتنزّه وممارسة الحب! ولمّا لم تعد هذه السعادة ممكنة، فها أنا ذا على أهبة لإنهاء الأمر راضيا...»

خلال الشوط الثالث، بدا الحظ غير مؤات للأسير الجديد. مع ذلك لمتسائل أن يتساءل إن كان هناك انقلاب مقصود، ذلك أنّ مجموعة كاملة من الاختبارات تضعه الآن وجها لوجه مع دانيال، رئيس قسم مبيعات سابق في مركز تسوّق بأحد أحواز مدينة تورُنتو. وعلى امتداد هذه المواجهة يمكن القول إنّ المتطوّع يسعى جاهدا للتفريط في حظوظه، رغم مستوى منافسه البالغ الضّحالة. ودون أن يقصد فرض نفسه توجّه بالقول إلى خصمه في احترام شديد:

-تعرف يا دانيال، أنا لم يعد لديّ ما أخسره، ولذا يسرّني حقّا أن تتمكّن من العودة إلى منزلك الصغير وإلى شراب الويسكي وخاصة إلى كلبك...

ودون أن يتأثر البتّة بهذه الأقوال، تعامل دانيال مع هذا المنافس الغريب الأطوار بحذر. وبملامح الغبيّ الأمثل، نظر إلى الكاميرا متسائلا بصوت مرتفع:

-هل هذا الرجل أحمق أم ماذا؟

ولكنّ الأسير أجابه:

-كلاّ يا دانيال، لست أحمق. أنا أيضا كان عندي كلب اسمه ساركو وكنت أحبه كثيرا. أرجو أنه لا يزال دائما مع امرأتي!

تبع هذا الحوارَ سؤالٌ في الجغرافيا طرحه قائد فرقة الكومندوس:

-أين توجد منطقة الفلاندر[1]، هل هي في أوروبا أم في آسيا أم في أمريكا؟

أجاب دانيال دون تردد، «هي في آسيا»، أمّا منافسه فقد بدا مطيلا التفكير قبل أن يجيب بأنها «في أمريكا». وهكذا كان يمكِّن الكندي من التقدم عليه يوما بعد يوم. وفي النهاية، وجد الرجلان نفسيهما متعادليْن باحتساب النقاط، رغم كلّ الجهود المبذولة من دانيال ليفوز ومن منافسه ليخسر. كان لابد إذن من اللّجوء إلى تصويت جديد من قِبل الجمهور. وقد اغتنم المتطوِّع الفرصة ليطلق نداءً لصالح دانيال «الذي قاتل قتالا جيّدا، والذي من حقّه أن يستعيد حياتَه وسهراتِه أمام التلفزيون وأن يستعيد كلبَه. حقّا إنّ له مكانا في هذا العالم... أما

(1) الإقليم الفلامندي الذي يحتل القسم الشمالي من بلجيكا.(المترجم).

أنا فنظرا إلى حالي الراهنة، لا أرى أنني لا أزال صالحا لأيّ شيء».
طبَّق الجمهور تعليماتِه مقتنعا بوجهة نظره وعيّنه خاسرا في الشوط الثالث. وأعلن الكومندوس عن موعد إعدامه في الأسبوع الموالي.
أمّا دانيال فكان يدلي بتصريح حميم أمام الكاميرا:

- أنا لا أحب كثيرا هذا الشخص. إنه مخبول. ولكني مسرور فعلا لكوني فزت اليوم.

ثمّ رفع قبضته عاليا، فخرا بأنه قاتل بلا هوادة.

صادف يوم الإعدام زيارة ديزيري للحيّ الإداري. استُقبل من قِبل العمدة في بداية فترة الظهيرة. كان مدعوًّا إلى تدشين أول *فضاء تدخين من أجل الحياة*، وهو نوع جديد من الفضاءات مموّل من شركة التبغ العامة، يتلقّى فيه الأشخاص الذين يعانون من التسمّم معلومات ونصائح وعلاجات من أجل التخلي عن السيجارة. بعد أن قطع ديزيري الشريط، صعد على المنصّة وتوجّه إلى المنبر حيث الميكروفونات، صحبة قاضي المدينة الأوّل وفي إثره المحامية مارين باتاكي. وشكر العمدة على مبادرته قبل أن يضيف:

-كما ترون سيدي العمدة، أنا لا أنسى أني أصبحت مشهورا بسبب سيجارتي الأخيرة. ولكي تظلّ الأخيرة، قررت الإقلاع عن التدخين!

وبينما كانت موجة من التصفيق تهزّ الجمهور هزّا، عمد إلى التذكير بأنّ القضيّة الكبرى اليوم هي إنقاذ أبرياء *أكاديمية الشهداء*. وبعد أن وجّه نداء إلى الإرهابيين، زاد فذكَر الرجلَ الذي سيُذبح في اليوم نفسه:

-إنّه يستحقّ تعاطفنا رغم الأخطاء التي اقترفها.

أومأ العمدة برأسه علامة على الموافقة، وترك بضع لحظات من الصمت تمر.

في الوقت نفسه، كان الملايين من روّاد الأنترنت يحاولون الاتّصال بالشبكة لمتابعة صور عملية الإعدام. كان قائد الكومندوس يقبض على شعر رأس الأسير وقد بدا بنظرته الفزعة أمام الكاميرا فاقدا للامبالاته المعهودة. على هذه الهيئة المسرحية الجامدة، وكما لو كان يؤدّي عرضا أمام المشاهدين، مرّر قائد الكومندوس مدية طويلة مرهفة على عنق الضحيّة الذي صرخ:

-لا، أتوسّل إليك...

لم يكن لشكواه أيّ أثر. مرت لحظات، ثم قطع الجلاّد رقبة رهينته بينما كان الدم يتدفّق والجسد ينتفض انتفاضة طائر البط. وبطريقة جرّاح سادي أتمّ القاتل قطع الرأس ولوّح بها ممسكا إياها من الشعر. وبدت العينان اللتان ما تزالان بارزتين وكأنهما تطلبان الرحمة من عدسة الكاميرا.

بونوا ديتيرتر

# الصبيّة والسيجارة

«الصبيّة والسيجارة» علامة من علامات أدب الديستوبيا (أدب المدينة الفاسدة) في القرن الحادي والعشرين، ولكنّها دستوبيا ساخرة تُعرّي بخفّةٍ تهافت عالمٍ من المُثل والأحلام والقيم حتّى تغدو الخفّةُ صنوًا للثقل ويصبح الكائن لا يُحتمل.

رواية نُشرت سنة 2005 ومع ذلك فقد بلغت حدّ التنبّؤ العام والتفصيلي أحيانا بما سيحدث في سورية مثلا في السنوات الأولى من العشرية الثانية إذ يصوّر الكاتب مشاهد لهو الإرهابيين السينمائي بضحاياهم مسجّلا سبقا سرديا وحدسيا لما سيشاهده العالم بأسره بعد ذلك على شاشات التلفاز.

تنقذ سيجارةٌ حياةَ محكوم عليه بالإعدام فيخرج من غياهب السجن إلى ساحات المجد والشهرة بدعم من لوبيات صناعة التبغ، وتقلب سيجارة حياة موظّف رأسا على عقب فيتهاوى إلى الدرك الأسفل. وبين هذا وذاك رسائل عديدة يبعث بها الكاتب: إدانةُ النفاق الاجتماعي إذ يكرّس شعارات «العناية بالطفولة» محلّ «الأفكار الشمولية». والدعوةُ إلى الاهتمام بأنموذج بشريّ كاد يلفّه النسيان: الرجل الكهل المنتج، تتغذى الإنسانية من لحم كتفيه ولا يغنم غير الإهمال.

ISBN: 978-9983-833-86-7
9 789983 833867



